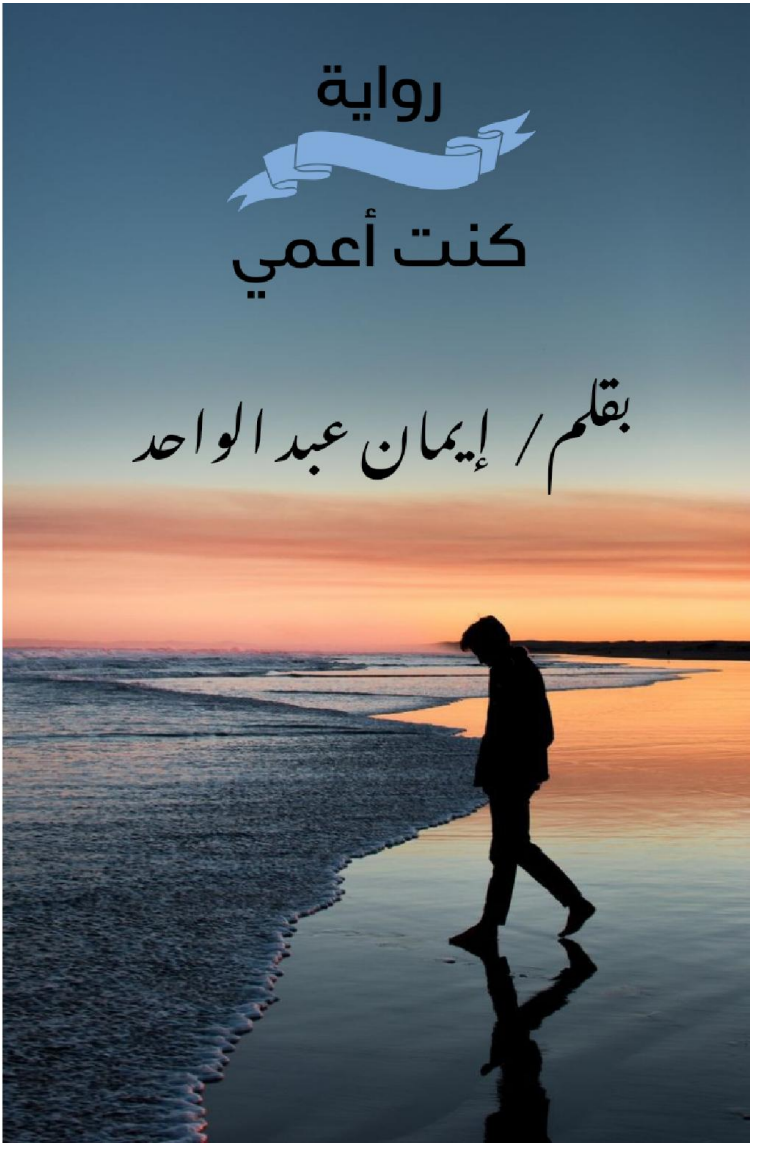
رواية
كنت أعمي
بقلم/ إيمان عبد الواحد

كنت أعمى

بقلم/

إيمان عبد الواحد

الفصل الأول

قاد رؤوف سيارته على الطريق الساحلي المؤدي إلى مدينة مطروح و هو شارد الذهن ؛ كان الظلام قد بدأ يهبط بسرعة عندما وصل إلى مشارف المدينة الهادئة التي خلت من المصيفين مع حلول الشتاء القارص و بدايات شهر فبراير ٢٠١١ م .

أوقف رؤوف السيارة على جانب الطريق و ترجل منها ؛ كان يرى مقهىً قريباً أسفل فندق صغير و قرر أن يدخل إليه ليشرب بعض القهوة قبل أن يذهب إلى الشقة التي تملكها أسرته عند بحيرة روميل فالشقة خالية و ليس بها من يخدمه و من الأفضل لو عرج على أحد المطاعم و اشترى عشاءه قبل أن يذهب إليها فهو لن يحب مغادرة الشقة قبل أن يحصل على القليل من الراحة فقد كانت المسافة من القاهرة إلى مطروح طويلة و مرهقة و هو لم يتوقف خلال الطريق و لا لمرة واحدة .

اختار رؤوف مائدة بجوار النافذة يستطيع منها أن يرَ الطريق و سيارته بسهولة قبل أن يطلب القهوة

و يشعل سيجارة و يغرق في أفكاره التي تتزاحم في عقله و تجعله يتخبط في فيضٍ من المشاعر المضطربة و الذكريات الغزيرة التي لا يدري كيف يتحرر منها و ينساها .

كان رؤوف شاباً قد بلغ الثلاثين من عمره منذ بضعة أيام ؛ وسيم الملامح ؛ بهي الطلعة ؛ تحيط به هالة من الجاذبية لا يمكن إنكارها كما كانت ثيابه الأنيقة و سيارته الفارهة تعكسان مدى ثراء أسرته و الحياة الرغدة التي ينحدر منها و ينتمي إليها .. لكن عيونه الشاردة كان بها الكثير من الحزن و الألم كما كانت نظراته تعكس ما يشعر به من ضياع .

رن جرس هاتف رؤوف بإصرار لكنه ظل يرمق الهاتف الموضوع على المائدة أمامه في تردد قبل أن يمسك به و يتلقى المكالمة ثم أتاه صوت أمه يهتف في غضب :

- أين أنت يا رؤوف ؟ .. لماذا تتجاهل اتصالي بك ؟ .. يجب أن أفهم ما الذي يحدث بالضبط بينك و بين تلك الفاسقة التي أبليتنا بها .

هتف رؤوف في فتور :

- طلقتها .. ألم يكن هذا ما ترغبين فيه ؟ .. بل بالأحرى ما كنتم جميعاً ترغبون فيه .. أظن أنه لم تعد لديكِ الآن مشكلة و يمكنك أن تنسيني وتعودي إلى مشاغلك الكثيرة يا جناب النائبة الموقرة .. سابقاً .

أتاه صوت أمه غاضباً و هي تهتف في ثورة :

- طلقتها ؟ .. بهذه البساطة ؟ .. كيف فعلت هذا بعد أن وقفت أمام العائلة بأسرها لتتزوجها ؟ .. و لما ؟ .. الأشاعات على وسائل التواصل الاجتماعي لا حصر لها و يجب أن ندع حداً لها .. لذا عليك أن تكون أمامي الآن لأفهم منك ما الذي حدث بينكما بالضبط .. أنا لست مستعدة لمواجهة فضائح جديدة ولا معالي الوزير والدك مستعد لها بالتأكيد .

أنهى رؤوف الاتصال دون أن يسمع المزيد من سخط أمه التي اعتاد على أن تظل غاضبة على الدوام و بدون أن ينطق و لا بكلمة واحدة ليشرح لها حقيقة ما حدث فهو لم

يكن مستعداً للمزيد من الحديث الآن كما أن أي شرحٍ أو توضيح من الممكن أن يقدمه لها لن يفعلَ شيئاً سوى أن يزيدها غضباً على غضب .

أغلق رؤوف الهاتف نهائياً و ألقاه في جيب سترته فهو لم يكن مستعداً لتلقي المزيد من الاتصالات كما أنه بالفعل لم يكن يرغب في الحديث مع أي شخص مهما كانت درجة قرابته منه أو إعزازه له .. كان يتألم بما يكفي و لن يمنحه الحديث سوى المزيد من الألم .

تجرع رؤوف ما تبقى في قدح القهوة و هو يفكر في أنه من الحماقة أن يكمل طريقه إلى شقة العائلة فسيتوقع البعض وجوده هناك و لن يكون من الصعب عليهم مباغتته بالزيارة أو الاتصال به على الهاتف الأرضي بها و كان هذا سيمثل ضغطاً عليه ليس مستعداً للتعرض له الآن .

سدد رؤوف ثمن القهوة قبل أن يتوجه إلى موظف الاستقبال بالفندق و يحجز غرفة لمدة يومين و سدد الأجرة نقداً قبل أن يخرج إلى الشارع ليخرج حقيبة ثيابه من السيارة التي طلب من أحد العاملين بالفندق أن يحملها إلى غرفته قبل أن يركب السيارة و يغادر المكان .

كان رؤوف يدرك جيداً أنه ليس من الصعب على معالي الوزير السابق والده و على جناب النائبة الموقرة أمه تتبع سيارته و التعرف على مكانها رغم الظروف التي تمر بها الدولة منذ اندلعت مظاهرات ٢٥ يناير .. على الأقل عن طريق دائرة معارفهم الكثيرة في كل مكان و في وزارة الداخلية على وجه التحديد رغم الضربة القاصمة التي هزت مركزهما بعد أن تم الإعلان عن إقالة الحكومة وحل البرلمان .. كما كان يعرف أن هذا أيضاً ما يمكن أن يفعله أي صحفي يطمح إلى تحقيق سبق جديد على حساب شخص له مركز اجتماعي مرموق مثله و كان آخر ما

يمكن أن يتحمله الآن هو مواجهة سخافات الصحفيين .

قرر رؤوف أن يترك سيارته داخل محطة بنزين بغرض فحصها وتنظيفها قبل أن يترك المكان و يركب سيارة أجرة أعادته إلى الفندق مرة أخرى حيث دخل إلى المطعم و طلب طعام العشاء لكنه جلس يدخن دون أن يلمس طعامه و قد غرق في تفكيرٍ عميق .

سؤال ملح ظل يدور في ذهن رؤوف طوال الوقت وهو يفكر فيما آلت إليه الأمور : هل كان من الممكن أن تنهار حياته على هذا النحو لو لم يكن أعمى و لا يستطيع أن يبصر أبسط الحقائق فيما يحيط به ؟ .. لأنه قد جرب فقد البصر من قبل لمدة طويلة قبل أن يتمكن الأطباء من إعادة البصر إليه من جديد ؛ فهل هناك طبيب واحد في هذا الكون يستطيع أن يشفيه من فقد البصيرة ؟

فقد رؤوف بصره عندما كان في السابعة عشر من عمره ؛ كان مراهقاً شديد الفوضى و يسبب الإزعاج لكل من حوله خاصةً والده

رجل الأعمال المعروف رشدي الصياد والذي لم يكن قد تقلد منصب الوزارة بعد و أمه شاهندة الجيار الأستاذة الجامعية المتخصصة في مجال التنمية البشرية و سيدة المجتمع المعروفة بتاريخها الطويل في العمل الأهلي و رعاية المؤسسات الخيرية التي تؤوي المشردين من الأطفال وتحميهم من ظلم المجتمع و قسوة المحيطين بهم حتى لو كانوا من ذويهم أو من أقرب الناس لهم .

لم يكن رؤوف هو الابن الأكبر أو الوحيد فقد كان شقيقه سعيد يكبره بعامين بينما شقيقته هايدي تكبره بأربعة أعوام لكن رؤوف كان مصدر إزعاج كبير لوالديه .. ربما لأنه لم يكن يوافق على السير في الخط الذي رسمه له والداه ؛ و لم يكن لديهما ذرة استعداد واحدة في أن يتمرد عليهما ابنهما ؛ أو أن يحاول أن يرسم بنفسه الطريق الذي يرغب في أن يسير فيه .

كان رؤوف هو بطل النادي في السباحة و كان يطمح للمنافسة على مستوى دولي و هو لم يكن قد حصل على الثانوية العامة

بعد ؛ ورغم أنه كان متفوقاً دراسياً و رغم رغبة والديه الواضحة في أن يدرس إدارة الأعمال كأخيه ليشاركه فيما بعد في إدارة الثروة المهولة التي تملكها العائلة لكن رؤوف كان يجهر طوال الوقت برغبته في الإلتحاق بمعهد السينما و دراسة الإخراج و كتابة السيناريو و هو الشيء الذي كان يغضب والديه طوال الوقت .

بمجرد أن انتهت امتحانات الثانوية العامة قرر رؤوف السفر إلى مطروح لقضاء بضعة أيام هناك ؛ و كالعادة لم يكن لدى والديه وقت أو استعداد للسفر معه فاصطحب أخيه و أحد الخدم و سافروا معاً ..

كان هذا معتاداً بالنسبة إلى رؤوف و رغم شعوره بالسخط نحو والديه اللذين يتعاملان معه و مع أخوته بمنتهى الإهمال و انعدام الشعور لكنه كان يشعر بالسعادة لأنه قد أنهى مرحلة مملة من حياته و عليه الآن الاستعداد لمعركة طويلة مع والديه ليحقق ما يحلم فعلاً بتحقيقه .. و الإلتحاق بمعهد السينما هو الخطوة الأولى .

في ذلك الصباح ذهب رؤوف مع سعيد إلى شاطئ عجيبة ؛ سبحا لبعض الوقت معاً قبل أن يتفرقا ؛ تعرف سعيد على فتاة و ابتعد معها إلى طرف الشاطئ بينما سار رؤوف لبعض الوقت فوق الصخور قبل أن يقفز إلى الماء من جديد .. كان جسده قد غاص في الماء بسرعة بعد أن اصطدمت رأسه بالصخور و تفجرت منها الدماء .

الفصل الثانـي

عندما استعاد رؤوف وعيه كان يرقد على فراش صغير في المستشفى و أهله يحيطون به لكنه لم يكن يستطيع أن يرَ أحداً منهم ؛ كان قد فقد نظره على أثر وجود تجمع دموي في المخ لم يستطع الأطباء التدخل لاستئصاله ..

كان رؤوف يدرك كل ما قاله الأطباء عن أن خضوعه لأي جراحة الآن من الممكن أن يودي بحياته و مع هذا كان مستعداً للخضوع للجراحة لولا أن والداه قد رفضا الأمر بشدة .

عندما غادر رؤوف المستشفى بعد بضعة أسابيع كان يشعر بالسخط على والديه اللذين يصران على التحكم في حياته و فرض إرادتهما على خياراته دون أن يهتما بسماع رأيه أو احترام رغبته ؛ كما كان غاضباً من الظلام الذي أحاط بعالمه كله مما اضطره لتقليص هذا العالم بقدر المستطاع فقرر أن يحبس نفسه في غرفة نومه لا يغادرها كما لم يكن يسمح لأحد بدخولها

سوى الخادم الذي يحضر له الطعام ثم يعود ليحمله و هو يكاد أن يكون كما هو و لم يمس .

في ذلك الصباح حاولت أمه الحديث معه لكنه طردها من غرفته شر طردة فغادرت الغرفة و نزلت إلى الطابق السفلي حيث غرفة المكتب التي جلس بها رشدي و هو يراجع بضع ملفات على شاشة الحاسوب في تركيز شديد .. دخلت شاهندة إلى الغرفة و هي شديدة العصبية و هتفت :

- هذا الأمر لم يعد من الممكن السكوت عنه بعد الآن .. ابنك حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم و لا يبدو أنه سيتقبل واقعه الجديد بالسهولة التي نتمناها .

هتف رشدي دون أن يرفع عينيه عن شاشة الحاسوب :

- و ماذا كنتِ تتوقعين غير ما يفعله الآن ؟ .. الولد مكتئب و هذا طبيعي نظراً إلى الوضع الراهن .. أمهليه بعض الوقت حتى يتكيف مع واقعه الجديد و بعدها ستجري الأمور في

سلاسة .. ضعي نفسك مكانه يا شاهي حتى يمكنك أن تتفهمي موقفه .

جلست شاهندة على المقعد الذي أمام المكتب و هي تهتف في توتر :

- أتظن أنني مستاءة منه ؟ .. أنا أفهم أن ما يمر به ليس سهلاً لكنه لا يحاول أن يساعد نفسه و لا يتقبل مساعدتنا له .. نفوره منا و عزله لنفسه داخل غرفته سيجعل اكتئابه يزداد و لا أظن أنه سيتحسن من تلقاء نفسه لو لم نفعل شيئاً يساعده على التحسن .

التفت رشدي نحوها و هتف في ضيق :

- الولد من الأساس متمرد و فوضوي و رفضنا للجراحة يجعله ثائراً و يحملنا مسئولية ما هو فيه .. قد لا يقول هذا صراحةً لكننا يجب أن نتفهم أن هذا ما يشعر به .. ثم إن عالمه بالكامل قد انهار ؛ تفوقه الرياضي .. صداقاته و علاقاته .. دراسة الإخراج التي كان مستعداً لمحاربتنا من أجلها .. كان في مفترق طرق و يهم برسم مستقبله و تحديده فإذا به يبتلى بهذه النكبة .. لو كنت مكانه ربما لكانت حالتي أسوأ مما هو عليه .

زفرت شاهندة في حرارة و هتفت :

- و الحل ؟

مط رشدي شفتيه و هتف :

- أظن أن الحل ليس في يدي و لا في يدك .. ابنك غاضب منا و لن يسمع لنا .. نفس الشيء بالنسبة إلى أخوته و أصدقاءه .. أظن أنه يحتاج إلى شخص جديد .. شخص لم يكن يعرفه قبل الحادث و ليس ثائراً عليه أو رافضاً لوجوده ..

قاطعته شاهندة هاتفة في حدة :

- و ماذا تقترح بالضبط ؟ .. أن نزوجه و هو في هذا السن ؟

أشاح رشدي بنظره عنها و هتف :

- بالتأكيد لا .. كنت أتحدث عن متخصص يا دكتورة .. طبيب نفسي .. ألن يكون هذا أكثر جدوى ؟ .. لأننا آجلاً أم عاجلاً سنضطر لخطوة كهذه و إرجاؤها لن يفعل شيئاً سوى أنه سيزيد الأمر تعقيداً فحسب .. صحيح أن خطوة كهذه قد تثير بعض اللغط حول الولد

و سمعته و سمعتنا جميعاً لكنها قد تكون ضرورية جداً و إذا تقاعسنا عنها قد تصبح حتمية مع الوقت .

هتفت شاهندة في استنكار :

- هل تريد أن يقول الناس أن ابنك مجنون ؟ .. هل تعرف مدى تأثير هذا على سمعتنا جميعاً ؟ .. انتخابات مجلس الشعب على الأبواب و أنا أستعد لخوضها ؛ و أنت ؟ .. هل نسيت أنك مرشح لمنصب وزاري ؟ .. يجب أن نتصرف بحذر يا رشدي و خطوة متهورة كهذه قد تدمر كل ما تعبنا من أجل تشييده .

غادرت شاهندة الفيلا و هي تفكر في أن زوجها قد يكون محقاً ؛ ابنها بالفعل يحتاج لشخص في حياته يستطيع أن يعيد إليه توازنه .. لكن هذا الشخص ليس بالضرورة أن يكون معالجاً نفسياً أو طبيباً متخصصاً فحالة رؤوف حتى اللحظة الراهنة لم تكن قد تدهورت لهذا الحد ؛ كما أن فكرة الطبيب النفسي لا تعجبها من الأساس .. رؤوف يحتاج إلى صديق .. أو صديقة .. يحتاج إلى

شخص مستعد لمساعدته و امتصاص عواطفه المضطربة و مشاعره العاصفة و يكون متفرغاً لسماعه في أية لحظة و طوال الوقت .

أوقفت شاهندة سيارتها داخل دار إيواء الأيتام التابعة لإحدى الجمعيات الخيرية الكثيرة التي ترعاها ؛ كان عليها التحضير لحفل كبير لجمع التبرعات و هي مسألة تحتاج لمجهود كبير و تركيز شديد و هذا ما لم تكن مستعدة له في هذه اللحظة للأسف فقد كانت حالة رؤوف تشغل حيزاً كبيراً من عقلها و كان عليها أن تجد حلاً لها و بسرعة حتى تتفرغ للأمور الهامة التي يجب عليها إنجازها قبل بدء صراع الانتخابات .

ذهبت شاهندة إلى مكتبها و لمحت في مكتب السكرتاريا امرأة فقيرة تبكي بشدة و معها ثلاث فتيات يبدو عليهن البؤس و رقة الحال .. تجاهلت شاهندة المشهد الذي لم يكن جديداً و دخلت إلى مكتبها لكن السكرتيرة تبعتها و هي تهتف في توتر :

- هناك امرأة تصر على مقابلتك يا دكتورة .. أتت لثلاث مرات من قبل و لا أعرف كيف أتخلص منها هذه المرة .

جلست شاهندة خلف مكتبها و هي تهتف في برود :

- تتقاضين راتباً كبيراً لإنجاز هذا النوع من المهام بالذات يا ليلى و إذا كنتِ عاجزة عن أداء مهمتك فيمكنك ترك وظيفتك لمن هو جدير بها و يستطيع أداؤها بدقة .

احتقن وجه ليلى بشدة و ازداد احتقانه عندما فتحت المرأة الفقيرة باب المكتب ودخلت إليه و هي تهتف في توسل :

- اسمعيني يا دكتورة أرجوكِ .. لأنكِ إن لم تفعلي سألقي نفسي أنا و بناتي في النيل و سيكون ذنبنا في رقبتك .

نظرت شاهندة بطرف عينها إلى ليلى في سخط فهتفت ليلى في ارتباك :

- ما هذا الذي تفعلينه يا ست منيرة ؟ .. ليس من الأصول اقتحامك للمكتب على هذا النحو كما أنني قد قلت لكِ مراراً من قبل أن الدار

هنا تقبل اليتامى فحسب و هذا لا ينطبق على بناتك للأسف .

هتفت منيرة في لوعة :

- اليتامى أفضل حالاً من بناتي بكثير .. ليت أباهن كان ميتاً لهان الأمر لكنه وبالاً عليهن .. فقدت ثلاث بنات بسببه و لست مستعدة لأن تضيع بنتاً أخرى في جرائر جرائمه .. المدمن الحقير قواد يتاجر في لحم بناته الواحدة تلو الأخرى لينفق على السم الذي يتعاطاه .. انظري يا دكتورة .. انظري .. هذه ابنتي سماح المسكينة التي أصبحت عرجاء .. المجرم كسر ساقها و هدد بكسر رقبتها لأنها رفضت العمل في خدمة الشقق المفروشة كالثلاثة اللاتي سبقنها من أخواتها و إذا لم ترحميها أنتِ فسيصبح مصيرها مثلهن .

هتفت ليلى في تردد :

- في الحقيقة يا دكتورة .. حياة الست منيرة مأساة بكل معنى الكلمة كما أنها مريضة سرطان و ليس أمامها أمل كبير في الشفاء .. لا أعرف كيف تستطيع الجمعية مساعدتها هي و بناتها لكنني أعلم جيداً أن الدار هنا

لإيواء اليتيمات فحسب و لوائحنا للأسف لا تسمح بقبول فتيات لهن أب و أم على قيد الحياة حتى لو كان الأب منحرف و الأم لا حول لها و لا قوة كما هو الحال مع الست منيرة .. فما رأيك ؟ .. أيمكنك مساعدتهن يا دكتورة ؟ .

لم تسمع شاهندة الكثير من حديث ليلى فقد كانت تتأمل سماح و هي تفكر في شرود قبل أن تهتف فجأة :

- بالطبع يا ليلى .. لا يمكننا أن نتخلَ عن فتيات معرضات للانحراف و تركهن نهباً للظروف .. سأقبل دخول الفتاتين الصغيرتين إلى الدار بصفة استثنائية و على مسئوليتي الخاصة لكن سماح كبيرة بما يكفي لتتولى إعالة نفسها بنفسها .. و لديّ لها وظيفة .. وظيفة مناسبة جداً .

الفصل الثالث

ارتمت سماح في حضن أمها التي ضمتها و هي تبكي في حرقة قبل أن تعانق أختيها ثم خرجت مع شاهندة في سيارتها التي انطلقت بهما إلى الفيلا .. لا يزال كلام أمها يرن في أذنيها و هي تهتف :

- أريدك أن تكوني دوماً عند حسن ظن الهانم بكِ .. احفظي جميلها و اجتهدي في خدمتها و طيعي كل أوامرها .. قد لا يمهلني العمر الفرصة لأراكِ مرة أخرى يا ابنتي لكنني سأموت و أنا مرتاحة البال فعلى الأقل لديكن الآن من يرعاكن و يحميكن من بطش جابر و جبروته .

نظرت سماح بطرف عينها إلى المرأة التي تقود السيارة بها ؛ تأملت وجهها الجميل و ثيابها الأنيقة و رائحة الثراء التي تفوح منها و هي تشعر بالخوف .. لا من المرأة التي بدت لها عطوف و تفيض بالطيبة بل من المستقبل و المجهول الذي ينتظرها في مكان لا تعرفه و حياة لم تألفها و عالم لم يكن من الممكن أن يكون لها وجود به لكن شاهندة

تدفعها لدخوله الان و هي لا تعرف ما الذي ستفعله بها الأيام .

كانت شاهندة تنظر إلى سماح بطرف عينها و هي تفكر في أنها فتاة صغيرة لم تتجاوز الثالثة عشر من عمرها بعد لكنها تبدو أكبر من هذا ببضع سنوات فجسدها الذي تستره بالخرق البالية يتفجر بالأنوثة و إذا ارتدت ثياباً مناسبة و تحممت و تعطرت و أصبحت متناسقة مع الفيلا التي ستعيش فيها فقد تكون هي الشخص المناسب تماماً ليملأ الفراغ في حياة رؤوف و يعيد إليه إحساسه بالسعادة و رغبته في الحياة .

دخلت سماح إلى الفيلا و هي تتأمل مظاهر الثراء حولها في ذهول بينما استدعت شاهندة مديرة المنزل وهتفت بها :

- سماح مسئوليتك من الآن .. حممیها و امنحيها شيئاً مناسباً من ثياب هايدي فلهما نفس المقاس تقريباً رغم فرق السن بينهما إلى أن أشتري لها ثياباً مناسبة .. أريدها أمامي بعد ساعة واحدة وهي تبدو وكأنها فتاة أخرى ..

هل فهمتِ ؟ .. ستعمل هنا في السرايا ويجب أن تبدو دوماً بمظهر لائق .

ذهبت سماح مع مديرة المنزل بينما صعدت شاهندة إلى غرفة رؤوف الذي هتف في حدة :

- ماذا تريدين مني ؟ .. اتركيني وحدي .

هتفت شاهندة في هدوء :

- سأفعل .. لكنني أولاً أريد أن أخبرك بأنني قررت أن هذه الغرفة لم تعد تناسبك فالدرج سيعوق حركتك و لا يمكننا أن نخاطر بأن تدق عنقك وليس هناك مكان مناسب لإقامتك في الطابق الأرضي لذا سينقل الخدم متعلقاتك كلها إلى الاستراحة .. وجودها في الحديقة سيجعلها مكاناً مناسباً جداً لتهدأ أعصابك كما أنها بعيدة عنا بعض الشيء و ستجد بها الخصوصية التي ترغب بها .

هتف رؤوف في سخرية :

- ليست معزولة عنكم بما يكفي .. لما لم تقرري نفيي إلى غرفة الجنايني أو بيت الكلب أم ترجئين هذا للخطوة التالية ؟

تجاهلت شاهندة النقمة و المرارة التي تقطر من صوته و هي تهتف :

- و بالتأكيد ستحتاج إلى شخص يرعاك بشكلٍ دائم .. يرتب ثيابك .. يقدم لك الطعام .. يلبي رغباتك في كل وقت .. و قد أحضرت خادمة جديدة لتتفرغ لطلباتك .. و لتكون قريبة منك طوال الوقت سأسمح لها بالإقامة في الاستراحة .

كان رؤوف يشعر بالسخط من قرارات أمه المفاجئة و التي أصدرتها بشكل نهائي بدون أي اعتبار لرأيه أو رغبته كالعادة ؛ كانت غرفته مكاناً مألوفاً بالنسبة إليه و يستطيع أن يتحرك فيها بدون أن يتعثر فقد عاش فيها طوال حياته كما أنه لم يكن يرغب في اقتحام أحد لحياته حتى لو كان خادماً أو خادمة تريد أمه أن يكون حارساً له و وصياً على حركته و تصرفاته .. خسر قدرته على أن يرَ الحياة و يحقق أحلامه بها لكنه لا زال يملك حريته و لا يريد أن يستغل والداه ظروفه الجديدة ليسلباه إياها بلا رحمة .

نظرت سماح إلى انعكاس صورتها على المرآة في توتر و حيرة ؛ بدت كأنها فتاة جديدة لم تعرفها من قبل و التفتت إلى مديرة المنزل التي هتفت في خشونة :

- أهم شيء هنا هو النظافة و الأمانة .. بدونهما ستخسرين عملك هنا و تعودين إلى الشارع الذي جئتِ منه .. لا أفهم ما الذي يجعل الدكتورة تهتم بمراهقة غبية مثلك لكننا هنا نطيع الأوامر بدون أن نسأل .. لذا ستأتين معي الآن لأشرح لكِ ما هو المطلوب منكِ بالضبط .

ذهبت سماح مع مديرة المنزل إلى الحديقة و رأت المبنى الصغير المختفي بين شجيرات صغيرة مزروعة بعناية و دخلت إليه و هي تتأمل الخدم الذين يحملون ثياب رؤوف و متعلقاته و يعيدون ترتيبها في المكان الذي بدا أنيقاً جداً .. هتفت مديرة المنزل :

- من الآن فصاعداً سيقيم رؤوف بك هنا و ستلازمينه طوال الوقت .. هو كفيف لذا لن تكون خدمته سهلة فهو يحتاج لمن يضع عينيه نصب رأسه طوال الوقت ليراقب كل حركاته حتى لا يتعثر فيؤذي نفسه .. حتى عندما ينام

ليلاً لن تغادري المكان فهناك أريكة مريحة في غرفة المعيشة و يمكنك استخدامها .. المهم هو ألا تصدر منه أية شكوى منكِ و إلا سأكون سعيدة جداً و أنا ألقيكِ إلى الشارع .

غادرت مديرة المنزل المكان يتبعها الخدم و تركت سماح تشعر بخوفٍ غريب لا تدري كنهه قبل أن تلاحظ أنها بالفعل ليست الوحيدة الموجودة في المكان فقد كان رؤوف مستلقياً في الفراش و هو يدخن سيجاراً في عصبية .. لم يكن يدخن قبل الحادث لكن من بعده أصبح التدخين تقريباً هو الشيء الوحيد الذي يفعله طوال الوقت .

دخلت سماح إلى الغرفة بخطى مترددة قبل أن تهمس :

- السلام عليكم .

ظل رؤوف صامتاً فهمست مرة أخرى :

- أنا سماح .. الخادمة الجديدة .. هل .. هل من خدمة أؤديها لك ؟

هتف رؤوف في حدة :

- بلى .. أريد أن أنسَ أنكِ موجودة هنا من الأساس فأنا لست طفلاً و لا أحتاج إلى جليسة أطفال .. يمكنك العودة من حيث أتيتِ فأنا لا أحتاج إلى خادمات .

بدا فظاً رغم أن كل ما في مظهره كان يوحي بأنه شاب لطيف .. لطيف جداً .. و بالتأكيد لم يكن مثل أي شخص رأته سماح من قبل .. قيل لها أنه كفيف لكن عيونه كانت تحدق فيها مباشرةً وهو يهتف في حدة :

- هل أصابك الخرس فجأة ؟ .. لماذا صمتِ على هذا النحو ؟

همست سماح في تردد :

- حتى تنسى أنني هنا .. أنت لا تراني و إذا لم تسمعني فكيف ستشعر بأنني هنا .. أنا أطيع أوامرك يا سعادة البيه ولا أستطيع مخالفتها حتى لا أخاطر بإغضابك .. لأنني لن أعود من حيث أتيت مهما حدث .. أفضل أن أموت قبل أن أفعل .

للحظة فكر رؤوف في أن صوتها جذاب .. جذاب جداً .. كما أنه مشحون بالعواطف كما لو أن في قلبها دمعة كبيرة تتدفق في ثنايا حروفها و تريد أن تصرخ بقوة هاتفةً : أنا هنا .. أنا موجودة .. لأنها تحتاج إلى اليد التي تمتد لتمسحها في رقة .. في منتهى الرقة .. و هو شيء لم تكن تنتظره الفتاة من أي انسان أو تتوقعه .

اعتدل رؤوف جالساً في الفراش فجأة وهتف في حزم :

- اقتربي .

ترددت سماح لحظة قبل أن تطيعه في صمت ؛ مد يده نحوها فمدت كفها إليه و تلامست أصابعها للحظة قبل أن يطبق رؤوف أصابعه على كفها قبل أن يهتف :

- يدك صغيرة و ناعمة .. لا أتخيل أنها يد اعتادت غسل الصحون أو مسح الأرضيات من قبل .. لا تدعي أنكِ خادمة لأنني لا أرحم من يحاول استغفالي .

هتفت سماح في توتر :

- لا أحاول أن أفعل .. أنا الآن خادمة .. خادمتك أنت .. منحتني الدكتورة الوظيفة قبل ساعتين فحسب و لا أدعي أنني قد ولدت خادمة .. كنت طالبة في المدرسة حتى بضعة أشهر مضت .. مرضت أمي بالسرطان و لم تعد تستطيع أن تنفق على تعليمي .. اضطررت لترك المدرسة أنا و أخوتي الأصغر مني بسبب الظروف .. فكرت أمي في أن تضعنا في الملجأ الذي تديره الدكتورة لتطمئن علينا قبل أن تموت بدلاً من أن تتركنا في الشارع .. سميرة وشادية هناك الآن وأتمنى أن تكونا بخير و أن يتمكنا من العيش بأمان و إكمال تعليمهما أما أنا .. أنا سأحاول أن أكون عند حسن ظن الدكتورة و لن أقصر في خدمتك .

هتف رؤوف في فضول :

- كم عمرك بالضبط ؟ .. صوتك بالفعل يوحي بأنكِ لا زلتِ صغيرة .

همست سماح في توتر :

- عمري ثلاثة عشر عاماً و بضعة أشهر فحسب لكنني قوية البنية و لن أقصر في أي شيء تأمرني به .. إذا أردت أن أمسح لك أرضيات الفيلا كلها يومياً فسأفعل .. لكنني لا أريد الذهاب من هنا أرجوك .. أنت لا تعرف ما الذي ينتظرني في الشارع .. الشوارع لا ترحم و أنا أفضل أن أقتل نفسي قبل أن أبيع جسدي على الأرصفة .

ترك رؤوف يدها و هو يهمس في توتر :

- ماذا تفعلين هنا على كل حال ؟ .. هل أرادت أمي أن تخرجني من أزمتي على طريقة المثل القائل من رأى بلوة غيره هانت عليه بلوته ؟ .. لأن لديّ من الحزن ما يكفيني و لا أحتاج إلى من يذكرني دوماً بأن وجيعته قد تكون أكبر من وجيعتي .

الفصل الرابع

قبيل منتصف الليل أوقف السائق سيارة رشدي في حديقة الفيلا ونزل منها رشدي الذي رأى الأضواء المنبعثة من الاستراحة فقطب جبينه و اقترب منها .. لم يكن الباب موصداً من الداخل لذا فتحه برفق و دخل على أطراف أصابعه .. تأمل الفتاة النائمة على الأريكة أمام التلفاز الذي لا زال يعمل قبل أن يفتح باب غرفة النوم و ينظر إلى ابنه الذي كان قد غرق في النوم قبل ساعة تقريباً .

زفر رشدي في حرارة قبل أن يغادر الاستراحة و يغلق بابها خلفه ؛ ثم دخل إلى الفيلا و صعد إلى غرفة نوم زوجته التي كانت لا تزال مستلقية في الفراش و هي لم تنم بعد .. أغلق الباب خلفه قبل أن يهتف في سخط :

- ما الذي تفعلينه بالضبط يا شاهندة ؟ .. هذا أسخف شيء رأيته في حياتي .

هتفت شاهندة في هدوء :

- لما ؟ .. أنا أفكر في مصلحة ابني وهذا حقي .. انتظر حتى ترى النتيجة بنفسك .. أنا واثقة من أنه خلال أيام قليلة ستستطيع سماح إخراج رؤوف من عزلته و ستنقذه من اكتئابه .

هتف رشدي في حدة :

- من تظنين ابنك بالضبط ؟ .. السلطان سليم الأول .. لا أصدق أن تجلبي فتاة من الشارع لتجعليها محظية لابنك .. امرأة في مركزك العلمي و الثقافي و الاجتماعي كيف تفكر بهذه الصورة ؟ .. أنت فقدتِ عقلك يا شاهي و ستوقعينا جميعاً في مأزق كبير .

غادرت شاهندة الفراش وهي تهتف مبتسمة :

- من قال أنها محظية ؟ .. لم أستأجرها لتعمل كعشيقة لابني بل كخادمة .. خادمة فحسب .. إذا تورطت معه في علاقة جنسية فستكون هذه مشكلتها هي فحسب .. هي مسئولة عن تصرفاتها .. أحسنت إليها و أنقذتها من الشارع و ويلاته ؛ و إذا لم تصن النعمة وتصرفت كفتيات الشوارع و دنست عرضها و حاولت أن تلقي شباكها على ابن الحسب

و النسب الذي لا يليق بها فستدفع ثمن هذا حتماً ولن يلومني أحد حينئذٍ على ما سأفعله بها .

نظر إليها رشدي في ازدراء قبل أن يهتف في حدة :

- اسمعي يا شاهي .. أنتِ تلعبين بالنار و أنا ليس لديّ وقت لمجادلتك أكثر من هذا .. لا تضعي النار بجوار البنزين إلا إذا كنتِ واثقة من أنه يمكنك إخماد الحريق بدون خسائر .. أنا على وشك الحصول على مقعد الوزارة الذي حلمت به طوال حياتي و لست مستعداً لخسارته بسبب أفكارك المتهورة .. هل فهمتِ ؟

عقدت شاهندة ساعديها حول عنقه و هتفت ببساطة :

- دع الأمر لي و لا تشغل به بالاً .. رؤوف ليس أحمقاً ليتورط عاطفياً مع فتاة وضيعة كهذه .. وجودها في حياته للتسلية فحسب و هو يدرك هذا .. صحيح أن الفتاة جميلة جداً و مغرية لكنه الوحيد الذي لن يرَ هذا لذا ليس لدينا ما نخشاه .. أليس كذلك ؟

لم يكن رشدي مقتنعاً بما تفعله زوجته لكنه كالعادة استسلم لإرادتها و تركها تمضي في لعبتها كما تشاء ؛ و بالتأكيد كان يشعر بالراحة لأنه لن يضطر لمواجهة مشاكل ابنه النفسية بعد الحادث لأنه ليس لديه وقت لإضاعته في هذه التفاهات ؛ لديه مشاريع كبيرة و استثمارات هائلة و هي وحدها التي تستحق أن يشغل بها عقله و تفكيره .

في الاستراحة استيقظ رؤوف من نومه وهو مضطرب كالعادة ؛ تنتابه الكوابيس طوال الوقت و لم يعد يستطيع أن ينام لوقتٍ طويل و الأسوأ أنه يستيقظ دوماً و هو لا يدري كم الساعة الآن و هل انتهى الليل الطويل بساعاته الباردة أم أنه كالظلام الذي يعيش فيه قد أصبح بلا نهاية ؟ .

فكر فجأة في أنه على الأقل الآن أصبح لديه من يناكفه حتى يمر الوقت الثقيل الذي أصبح لا يمر بسهولة لذا نادى على سماح بضع مرات حتى استيقظت و دخلت إلى غرفته و هي تتثاءب ..

كانت متعبة فعلاً و لم تحظ بما يحتاج إليه جسدها المرهق من النوم بعد لكنها هتفت :

- صباح الخير يا رؤوف بك .. هل يبدأ يومك دوماً في هذه الساعة ؟ .. أتحب أن أذهب إلى الفيلا و أجهز لك الفطور ؟ .. لأن الخدم بالتأكيد لم يستيقظوا بعد و لن نجد أحداً منهم ليحضر لك الطعام الآن .

هتف رؤوف في توتر :

- كم الساعة الآن ؟

- الثالثة فجراً .. هل أنت جائع ؟

- لا .. تعالي هنا .. اجلسي .

جلست سماح على الأرض بجوار فراشه فهتف رؤوف :

- يمكنك الجلوس على المقعد .. ستجدين واحداً هناك على ما أذكر .

أطاعته سماح في صمت فهتف رؤوف في فضول :

- خطوتك ليست منتظمة .. يبدو الأمر و كأنك تتعثرين مثلي .. هل اختارت لي أمي خادمة كفيفة ؟

همست سماح في تردد :

- لست كفيفة ولكن .. أنا عرجاء .. كُسِرت ساقي منذ بضعة أسابيع و لم تبرأ تماماً بعد و أعتقد أنني سأظل أسير عليها بصعوبة لآخر عمري .

ثم أردفت بسرعة و في كثير من التوتر :

- لكن هذا لا يمنع من أنني أستطيع خدمتك كما ينبغي .. ساعدي قوية و يمكنك أن تعتمد عليّ في كل شئون المكان هنا .. أجيد التنظيف و يمكنني الطبخ بعض الشيء و ...

قاطعها رؤوف هاتفاً :

- خدم الفيلا سيقومون بالتنظيف و الطبخ و غسل ثيابي و حتى ثيابك و لا أظن أنكِ هنا من أجل هذا .. أنتِ هنا من أجلي أنا فحسب ..

شحب وجه سماح قليلاً و هي تهمس :

- ماذا تعني ؟

اعتدل رؤوف جالساً و هو يهتف في ضيق :

- لتسليتي في المنفى الاجباري الذي اختارته الدكتورة لابنها المعاق الذي ليس لديها وقت لرعايته .. أنتِ هنا لرفقتي فحسب يا سماح .. لتتحملي نوبات غضبي و سخطي على من حولي ونزواتي إن اقتضى الأمر .. ما رأيك ؟ .. هل تعجبك واجبات الوظيفة التي لم تصارحك بها الدكتورة بعد أم تفضلين الاستقالة من الآن ؟ .. لأنني بالفعل لا أرغب في رفقة أحد في هذا المنفى و أفضل السجن الانفرادي الذي فرضته الظروف عليّ و لا أريد أن أورط أحداً معي في عاهتي .. خاصةً إذا كان طفلة لا حول لها و لا قوة مثلك .

لمعت الدموع في عيون سماح لكن رؤوف لم يكن يستطيع أن يراها .. مع هذا كان يشعر بها عندما همست سماح :

- هذا يتوقف على حدود نزواتك ومفهومك عن التسلية .. الدكتورة أتت بي إلى هنا لأجلك لا لأجلها لذا فأنت فحسب من يحدد لي حدود

وظيفتي لا هي .. وإذا كنت تحتاج لمن يسمعك و يتحمل غضبك و يشاركك الظلام الذي تعيش فيه فحسب فأظن أنني أستطيع أن أفعل هذا بسهولة .. أقبل بأن أكون عبداً في مملكتك يفني كل طاقته في إرضاءك لكنني لا أستطيع أن أكون جارية ترضي نزواتك .. و إذا كان ما ينتظرني هنا لا يختلف كثيراً عن ما ينتظرني في الشارع الذي لجأنا إلى أمك لتحمينا منه فأظن أنك تستطيع أن تقبل استقالتي من الآن .

الفصل الخامس

مد رؤوف يده ليبحث عن علبة سجائره قبل أن تنهض سماح و تجري نحو العلبة و تضعها في يده ؛ أشعل رؤوف سيجارة و نفث دخانها في صمت للحظات قبل أن يهمس :

- أتعرفين أنكِ تجيدين الحديث بشكلٍ ملفت للنظر ؟ .. من يسمعك لا يستطيع أن يربط كلامك هذا بفتاة في سنك أو مستواكِ التعليمي .. تبدين و كأنكِ تملكين عقلاً راجحاً يا سماح لم أره من قبل في أي شخص ممن حولي .. عندما كنت أرى من حولي لم أكن أجتهد في فهمهم أو معرفة ما هم عليه فعلاً لكن بعد الحادث .. أظن أنني لم أعد أفعل شيئاً سوى أنني أحاول أن أرَ بعقلي ما في جوفهم من أفكار و مشاعر و الغريب هو أن هذا جعلني أنفر منهم بدلاً من أن .... سماح .. هل لا زلتِ هنا ؟

جلست سماح على طرف الفراش و همست :

- بلى و أستطيع سماعك .. كما أنني أظن أنني أفهم ما ترغب في قوله .. أصبحت تعيش في وحدة بعد الحادث .. وحدة أعرف جيداً ما

الذي يمكن أن تفعله بعقلك و قلبك ووجدانك .. ربما لأن الوحدة هي صديقتي المقربة .. عشت معها بأكثر مما تتخيل .. و العمر يا رؤووف بيه ليس بالأيام و السنين و لكنه بما عشته فعلاً و رأيته حولك .. و أنا عشت الكثير و رأيت ما لا يمكنك أن تتخيله .. يمكنك أن تعتبرني الآن في سن الستين لأن قلبي مسن بأكثر من هذا السن فعلاً .. أكثر بكثير .

ابتسم رؤوف و هتف :

- أولاً : انسي كلمة رؤوف بيه هذه لأنها لا تعجبني .. أنا أكبر منكِ بأربعة أعوام تقريباً و يمكن أن نكون أصدقاء .. لنا صديق مشترك يا سماح .. الوحدة .. و أنا في هذه اللحظة بالذات أفضل صداقتك على صداقته .. لديكِ الكثير لأسمعه منكِ و لديّ الكثير الذي لن أجد أحداً مستعداً لسماعه سواكِ و هذا يأخذنا إلى ثانياً فأنا فعلاً جائع .. هل يمكنك أن تذهبي إلى الفيلا و تجهزي لنا طعاماً خفيفاً .. يمكننا أن نأكل و نتحدث حتى يمر الوقت بسرعة .. أليس كذلك ؟

أكلا معاً و رؤوف يتحدث عن حياته قبل الحادث .. بطولة النادي التي حققها و الميداليات الذهبية التي أحرزها و لعبة الاسكواش التي كانت دوماً هي الشيء المشترك بينه و بين شقيقه سعيد ؛ و كتابة السيناريو و دراسة الإخراج التي كانت أول أحلامه التي تحطمت على صخرة الواقع الجديد .

همست سماح في رقة :

- أتعني أنك تجيد كتابة الأفلام فعلاً ؟ .. هل كتبت فيلماً من قبل ؟

هتف رؤوف في أسى :

- بل أكثر من فيلم .. كنت أحلم بأن أدرس الإخراج هنا أولاً ثم أكمل دراستي في أمريكا .. طالما تمنيت أن أخرج الأفلام التي أكتبها بنفسي لكن الآن .. أنا محبوس في هذا الظلام و عليّ أن أرمي كل أحلامي خلف ظهري للأسف .

ابتسمت سماح و هتفت :

- إذا لم يكن في وسعك الحصول على التفاحة كلها فسيكون نصفها أفضل من اللاشيء ؛ أليس كذلك ؟ .. أعني .. إذا لم تكن دراسة الإخراج تناسب ظروفك الآن فهذا لا يعني أن تتوقف عن الكتابة .. يمكنك اختيار دراسة تثقل مواهبك ككاتب وحاول من جديد .. لست مضطراً للتخلي عن كل ما تحبه لمجرد أن الظروف تقف بينك و بين أن تحظَ به كله .. أليس كذلك ؟

فكر رؤوف كثيراً في كلامها قبل أن يبتسم هاتفاً :

- لديكِ حق .. ألم أقل لكِ أن عقلك يسبق سنك بكثير يا سماح ؟ .. يبدو أنكِ حكيمة جداً و أنني مضطر لأن أشكر أمي على أنها قد أهدتني بكِ .. هل تجيدين الكتابة على الكمبيوتر ؟ .. لأننا يمكن أن نعمل على السيناريو الجديد معاً فأنا أجيد الإملاء و أنتِ عليكِ الكتابة .

ضحكت سماح و هتفت :

- لنحمد الله على أنني أجيد الكتابة على الورق .. و يمكنك فيما بعد أن تجعل أحداً يعيد الكتابة على الكمبيوتر ؛ أليس كذلك ؟

لأول مرة منذ الحادث كان رؤوف يشعر بالتفاؤل و الرضا حتى أنه قد خرج إلى الحديقة و هو يمسك بساعد سماح حتى لا يتعثر و تناول الفطور معها قرب حوض السباحة و عندما نزل رشدي إلى سيارته ليركبها و يغادر الفيلا إلى عمله نظر إلى رؤوف و سماح في حيرة و هو لا يصدق أن فكرة زوجته قد أتت بهذه النتيجة المبهرة في ليلة واحدة لكن هذا لم يمنع شعوره بالقلق بل جعل مخاوفه تزداد .

بعد تلك الليلة كان هناك الكثير أمام رؤوف ليفعله ؛ كانت أخته هايدي تزوره من وقتٍ لآخر وطلب منها أن تبحث على شبكة الانترنت عن كل ما يمكن أن تجده عن كتابة السيناريو و تطبعه لأجله كما اشترت له بضعة كتب مهمة في هذا الشأن .

لساعاتٍ طويلة كل يوم كانت سماح تجلس مع رؤوف في الحديقة و هي تقرأ له في الكتب التي لم تكن تفهم معظمها لكنها كانت تشعر بالارتياح عندما ترى الابتسامة على وجهه خاصةً بعد أن بدأ في كتابة الفيلم الجديد و لأيام وأسابيع عديدة كانت الحياة تمضي بها في هذا البيت وهي تشعر بالاستقرار حتى أنها بالفعل قد بدأت تتخلى عن كل مخاوفها من الأيام و المستقبل و هي تعيش سعيدة و راضية في العالم الذي لم يكن يحوي سوى اثنين فحسب .. هي و رؤوف .

بعد أسابيع قليلة أخبرتها شاهندة بوفاة أمها كما سمحت لها بالذهاب إلى الملجأ لزيارة أختيها و مواساتهما في مصابهما و أصر رؤوف على الذهاب معها .. ذهبا في سيارة شاهندة وبرفقتها لكنهما غادرا الملجأ بدونها و استأجرا سيارة بدلاً من أن تحملهما إلى الفيلا حملتهما إلى النيل حيث أصر رؤوف على تناول الغداء مع سماح في مركب سياحي مدعياً بأن هذا يذكره بالأيام الخوالي قبل الحادث لكنه في الحقيقة كان يريد أن

يأخذها إلى مكانٍ ساحر قد يستطيع سحره أن يخفف عنها ألمها بعض الشيء .

كان رؤوف يتناول طعامه في صمت و هي تساعده دون أن تنطق بحرفٍ واحد قبل أن يهتف رؤوف فجأة :

- حدثيني عن أمك ؛ كيف كانت ؟

لمعت الدموع في عيون سماح و هي تهمس :

- أطيب و أحن أم يمكن أن تعرفها في حياتك .. لكنها بائسة و قليلة الحيلة .. تزوجت أبي و هي صغيرة جداً .. كانت الابنة الوحيدة لتاجر مواشي ميسور الحال لكنه مات و تركها صغيرة و ضعيفة و قليلة الخبرة .. تزوجت أجيراً كان يعمل لدى والدها و هي تأمل في أن يصون مالها وكرامتها لكنه فرط في هذا كله .. ضاع المال و ضاق الحال بعد أن أنجبت منه ست فتيات أنا أوسطهن ؛ ثم أدركت أن إدمان أبي للهيروين لن يضيع الثروة فحسب لكنه سيضيع حياتنا كلها ..

انهمرت الدموع على وجه سماح و هي تردف :

- كانت أختي عائشة في مثل عمري تقريباً عندما انتحرت .. أخذها أبي لتعمل في خدمة المنازل هي و مفيدة التي تصغرها بعامٍ واحد .. بعد بضعة أسابيع عادت إلينا لنغسِّلها و لم أكن أفهم لما فعلت هذا بنفسها لكن مفيدة كانت تتفهم الأمر .. بعد هذا بقليل فوجئنا بالقبض على مفيدة .. كانت تمارس الدعارة بعلم أبي وموافقته و أتى دوري أنا و نبيلة التي تكبرني بعام .. حاولت أمي أن تمنعه عن أخذنا من حضنها لكنه ضربها و لم يسمع لها .. أختي نبيلة هربت من البيت و لا أحد يعلم مكانها إلا الله ومن يدري ما إذا كانت حية أم أنها قد ماتت على الأرصفة بدون أن نعلم .. أبي هو الذي كسر ساقي .. قال أن هذا قد يكون مفيداً إذا قررت أن أتسول لقمتي ما دمت لا أرغب في مسايرته فيما يريده مني .. في النهاية رأت أمي الدكتورة و هي تتكلم في التلفاز عن المجهود الرهيب الذي تبذله من خلال الجمعيات الأهلية لحماية الفتيات من الانحراف و قررت أن تلجأ إليها لتحمينا من أبي .. لحسن الحظ أن أبي لا يعلم أين نحن الآن لأنني لا أظن أنه كان سيتركنا نعيش دون أن يستنزفنا و يستغلنا .

انفجرت سماح باكية في حرقة بينما رؤوف يفكر في أنه لحسن الحظ أنه لا يراها الآن لأنه لا شيء كان سيمنعه من أن يضمها إلى صدره و يربت على ظهرها .. نهض فجأة و طلب منها أن يعودا إلى الفيلا فأطاعته في صمت ظل يهيمن عليهما طوال الطريق .

الفصل السادس

وضعت سماح القلم فوق الأوراق التي في يدها و التفتت إلى رؤوف و هي تهتف في سعادة :

- هل انتهى السيناريو أخيراً ؟ .. هذا رائع .. كم استغرق منك الأمر ؟ .. عام تقريباً ؛ أليس كذلك ؟

هتف رؤوف مبتسماً :

- أتصدقين هذا ؟ .. نحن نعمل على هذا السيناريو معاً منذ عامٍ تقريباً .. لا أتخيل أن الوقت قد مر بهذه السرعة .. قبل أن أعرفك يا سماح كان الوقت هو العدو الذي أكرهه ربما بأكثر من الظلام الذي أعيش فيه لكن الآن .. لا أتخيل أنني بالفعل سعيد بكل لحظة تمر في حياتي معكِ .. سعيد أكثر مما يمكنني أن أصف أو أن أتخيل .

تنهدت سماح في حرارة و ظلت صامتة ؛ ربما لأن ما يقوله رؤوف هو ما تشعر به بالفعل .. عاشت أجمل أيام حياتها هنا في عالمه و لا تستطيع أن تفكر في أنها ربما ذات

يوم لن يكون لها مكان في هذا العالم .. جلس رؤوف بجوارها على الأريكة وهو يهتف :

- أظن أن لدينا مناسبة جيدة لنحتفل بها .. ما رأيك لو نغادر الفيلا الآن ؟ .. سنذهب معاً إلى مكان أعتقد أنكِ لم تذهبي إليه من قبل وأظن أنه سيعجبك كثيراً .

كانت قد اعتادت على الخروج مع رؤوف من وقتٍ لآخر فهو كان يصحبها إلى كل مكان يذهب إليه ؛ و حتى عندما قرر الحصول على دراسات حرة في معهد السينما كان يأخذها معه ؛ و كذلك إلى النادي و المكتبة ودروس لغة بريل التي لم يجد أمامه مفراً من أن يتعلمها و حتى إلى كلية الآداب التي التحق بها .. إلى كل مكان .. حتى عندما ينام كانت تنام على مرتبة صغيرة وضعتها على الأرض بجوار فراشه فكثيراً ما كان يستيقظ ليلاً و يحب أن يتبادل الحديث معها .

أخذها رؤوف إلى منطقة الأهرام ؛ كان يرفض الخروج في السيارة التي خصصها له والده لأنه كان يشعر بأن السائق يراقبه طوال الوقت لذا كان يفضل دوماً استئجار سيارة

ليذهبا بها إلى حيث يريد .. هذه المرة كانت سماح تنظر إلى المكان في انبهار قبل أن تهتف :

- أنت محق .. لم أرَ المكان هنا سوى في التلفاز وهذا لا يظهر حقيقة السحر الذي أراه الآن .. المكان مبهر فعلاً .. أنت أتيت هنا من قبل و شاهدته يا رؤوف ؛ أليس كذلك ؟

هتف رؤوف مبتسماً :

- لمراتٍ عديدة .. لكن للحق لم أكن سعيداً و لا مبهوراً كما أنتِ الآن .. أتعلمين يا سماح ؟ .. بدأت أظن أن المال مفسدٌ للمتعة .. كون المرء يستطيع أن يفعل كل ما يحلو له لأنه يملك ما يستطيع به أن يشتري كل ما يرغب به يجعل الحياة في النهاية بلا طعم و لا معنى .. ربما كان القليل من الحرمان هو الملح الذي يجعلنا نستمتع بطعم حياتنا .

دعاها لركوب الجمل و عندما شعر بأنها مذعورة و لن تجرؤ على هذا بمفردها ركب معها ؛ كان يضمها إلى صدره حتى لا تسقط وهو يشعر بارتجافة صغيرة سرت في جسدها و في أوصاله لكنه تجاهلها و هو يهتف :

- جيد أنني لا أقوده بنفسي و إلا لضللنا الطريق .. آمل في أنكِ تستمتعين بوقتك يا عزيزتي لأن النهار قد أوشك على الانتهاء و سنضطر للعودة إلى الفيلا .

عندما عادا إلى الفيلا كانت هايدي تجلس في الحديقة في انتظارهما ؛ أسرعت نحوهما وهي تهتف في سعادة :

- حدد أبي أخيراً موعد زفافي أنا و مجدي .. بعد شهر من الآن .. لا أصدق أن مجدي قد وافق أخيراً على أن نعيش هنا في الفيلا بعد زواجنا و ليس في سرايا والده .. على كل حال بعد إتمام العرس يمكننا أن نقيم في المكان الذي يريده فكل ما أريده الآن هو أن نمرر الأمور بدون مشاكل حتى يمر العرس .

ضحك رؤوف وقبل جبين أخته و هو يهتف :

- سياسة الميل أمام الريح حتى تمر لا تناسب فتاة في سنك من المفترض أن تكون واثقة من نفسها وقادرة على إتخاذ كل قرارات حياتها دون الخضوع لأحد حتى لو حاربت من أجل هذا يا أختي العزيزة .. على كل حال مبروك .. ألف مبروك .. هل حددتم مكان الحفل أم

أن هذا أيضاً سيخضع لقرارات أبي و أمي العرفية كالعادة ؟

هتفت هايدي مبتسمة :

- قررت أمي أن الحديقة هنا ستكون مناسبة جداً لأنه ليس لدينا الكثير من الوقت حتى ننتهي من إعداد كل ما يلزمنا ..أنا عن نفسي لا يهمني سوى أن يكون المكان فسيحاً لأدعو أصدقائي كلهم و هم كثيرون كما تعلم و المكان هنا لا بأس به .. يمكنك أن تبدأ في دعوة أصدقاءك من الآن و لا تنسَ أحداً .

خلال الأيام التالية كان الشغل الشاغل لكل من في الفيلا هو الإعداد للعرس ؛ حتى سماح و رؤوف كانا يستعدان للمناسبة بكل حماس .. قرر رؤوف شراء بذلة سهرة و بضعة ثياب جديدة و قرر أن يشتريها بنفسه لذا اصطحب سماح معه كالعادة .. قال لها في صدق :

- أنتِ الآن العيون الوحيدة التي أرى بها العالم من حولي لذا عليك اختيار الثياب لي على ذوقك .. و اختاري ثوباً للسهرة يناسبك لأنكِ لن تحضري الحفل بثيابك هذه وأنا لن أحضر الحفل بدونك .

تلعثمت سماح و هي تحاول أن تخبره بأن حفلاً كهذا لا مكان لها فيه و بأنه بالتأكيد لن يحتاج إليها في مناسبة كهذه .. سيكون والداه و أخوه و كل أصحابه حوله و لا تريد أن تكون متطفلة على مناسبة لا يليق بالخدم حضورها لكن رؤوف أصر على شراء الثوب و اختاره بنفسه بعد أن تحسس بضعة أثواب للسهرة أحضرتها له إحدى العاملات في المحل بعد أن حدد لها أنه يريده فضي اللون و على مقاس الشابة الجميلة التي معه .

فكرت سماح في أن هذه هي أول مرة يقول فيها رؤوف أنها جميلة ؛ و لا تعرف كيف قالها بكل هذه الثقة و هو لم يرها على الإطلاق .. عندما غادرا المحل و هما يحملان الكثير من المشتروات همست سماح في تردد :

- هل تعتقد فعلاً أنني جميلة ؟

ابتسم رؤوف و هتف :

- لا .. بل أعتقد أنكِ أجمل من أية فتاة رأيتها في حياتي .. على الأقل أنتِ أكثرهن صفاءاً و نقاءاً يا سماح .. بالمناسبة .. لما لا تصفين

نفسك لي ؟ .. أريد أن أعرف أيهما أجمل : الفتاة التي تنير حياتي أم صورتها التي تضوي في مخيلتي ؟

احمر وجه سماح و لم تقل شيئاً ؛ أشارت إلى سيارة أجرة بالتوقف قبل أن تركب بها مع رؤوف و يعودان إلى الاستراحة .. البيت الذي يجمعهما معاً منذ أكثر من عامٍ مضى .. وضعت المشتروات في خزانةً الملابس و عندما التفتت كان رؤوف يقف خلفها فارتجفت .. هتف رؤوف :

- قال لي سعيد أنكِ جميلة جداً .. سمراء فاتنة ناعمة الشعر واسعة العينين .. وصفكِ لي بدقة حتى أنني أشعر طوال الوقت بأنني أستطيع أن أراكِ و لو استعدت نظري مرة أخرى فالشيء الوحيد الذي أرغب في أن أراه طوال حياتي هو أنتِ .. أنتِ فحسب .

همست سماح في توسل :

- رؤوف أرجوك .. أنت لا يحق لك أن تقول هذا الكلام لي و أنا لا حق لي في أن أسمعه .. أنا مجرد موظفة لديك .. خادمة يا رؤوف

.. لا أكثر و لا أقل .. عليك ألا تنسَ هذا أبداً لأنني لن أستطيع و لا أريد أن أنساه .

كاد أن يدخل في جدال طويل معها لولا أن شعر كلاهما بدخول أحدٍ ما إلى الغرفة .. التفتت سماح إلى القادم بينما تنحى رؤوف جانباً و هي تهتف :

- أهلاً يا سعيد بك .. سأذهب إلى المطبخ لأحضر عشاء رؤوف بك ؛ فهل تريد أن تتناول العشاء معه ؟ .

غادرت سماح المكان و هي ترتجف بينما نظر سعيد إلى وجه أخيه المحتقن و ابتسم هاتفاً في خبث :

- من الواضح أنني قد قاطعت شيئاً ما .. آسف يا شقيقي العزيز و لكن لا زال الليل في أوله و يمكنك أن تنهِ ما بدأته بعد أن أنصرف .

هتف رؤوف في توتر :

- لا تكن سخيفاً .. لا شيء مما يدور في رأسك قد حدث .

هتف سعيد في ضيق :

- لا تخفي الأمر عني فأنا شقيقك ؛ ثم إنني لا ألومك .. لو كنت مكانك لما تركت غزالة مثلها تفلت مني .. البنت جميلة أكثر مما يمكنك أن تتخيل و لو لم تكن تخصك لما ترددت في قضاء بضعة ليالي معها .

هتف رؤوف في حدة :

- اخرس .. إياك أن تتحدث بتلك الطريقة عنها .

هتف سعيد في غضب :

- أنا أخوك الكبير ولا يحق لك أن تتكلم معي بهذه اللهجة .. كلنا نعلم أن سماح عشيقتك ونتقبل هذا لكن هذا لا يعطيك الحق في أن تغار عليها على هذا النحو .. هي ليست زوجتك و من حقي و من حق غيري أن نشتهيها لكنني أقدر أنها مهمة في حياتك و لن تستطيع تعويضها لذا لن أحاول مشاركتك في الفتاة الوحيدة التي يمكنك الحصول عليها بينما في حياتي طابور من الفتيات تتمنى أية واحدة منهن أن تصبح عشيقتي و لو لليلة واحدة فحسب .

الفصل السابع

عندما عادت سماح إلى الاستراحة كان سعيد قد انصرف ؛ وضعت الطعام أمام رؤوف لكنه لم يلمسه بل اندس في فراشه و طلب منها أن تتركه وحده لأنه يريد أن ينام و مع هذا عندما جلست في غرفة المعيشة تتأمل التلفاز في شرود كانت تعرف أنه لم ينم بعد فقد كانت تستطيع أن تشتم رائحة سجائره .

كانت سماح تفكر في الحديث الذي دار بينها و بين رؤوف و في مزاجه الذي أصبح متعكراً فجأة قبل أن تغلق التلفاز و تدخل إلى الغرفة و تستلقي فوق المرتبة و هي تتظاهر بالنوم بينما لا يزال رؤوف جالساً في فراشه و هو يدخن سيجارة تلو الأخرى حتى آذان الفجر .

فجأة لم تعد سماح مستعدة لتركه نهباً لعواطفه أكثر من هذا ؛ كانت تعرف أن سعيد قد قال أو فعل شيئاً قد وتره بشدة كما تعرف أنها تستطيع الحديث معه حتى يتجاوز هذه الحالة و يعود إلى ما كان عليه .. أو على الأقل يمكنها أن تحاول ..

همست فجأة :

- ألست جائعاً ؟ .. أنت لم تأكل منذ وقتٍ طويل .

همس رؤوف في تردد :

- ألم تأكلي حتى الآن ؟ .. لماذا لم تتناولي عشاءك منذ وقتٍ طويل ؟

اعتدلت سماح جالسة و هي تهمس :

- منذ أكثر من عامٍ كامل ونحن نأكل معاً ؛ فلما تظن أنني أستطيع أن آكل وحدي الآن ؟ .. لكنني جائعة كثيراً بالفعل و إذا لم تأكل معي الآن سأموت جوعاً و سيكون ذنبي في رقبتك .

أكل رؤوف بضعة لقيمات معها و هو يفكر في أنه لم يكن يدرك كيف ينظر الناس إلى وضع سماح في حياته حتى أنه لم يكن ليفكر في أنه لا أحد يستطيع أن يفهم حقيقة ما بينهما ؛ هو نفسه لم يعد يستطيع أن يحدد حقيقة ما بينهما ؛ فمشاعره مضطربة و ثائرة و تخيفه

أكثر مما تغضبه ولا يعرف كيف يتعامل معها .

فكرت سماح في أن رؤوف غارق في تفكيرٍ عميق جعلها تشعر بأن ألف جدار قد قاموا بينهما فجأة وهي لم تكن ترغب فيما يحول بينهما .. صحيح أنها تدرك أن وجودها في حياته وضع مؤقت قد ينتهي في أية لحظة لكنها كانت تخدع نفسها بالآمال الكاذبة لتصدق أنها يمكن أن تعيش سعيدة في ظله لسنواتٍ عديدة قادمة .. لكنها كانت رغم هذا تعترف أمام نفسها أحياناً بأنها لن تستطيع أن تقاوم المشاعر التي تجذبها إليه لوقتٍ طويل .. و عندما تخرج علاقتهما عن مجراها الحالي ستكون هذه هي بداية النهاية الوشيكة لكل السعادة التي تستمتع بها منذ سمح لها رؤوف بالدخول إلى عالمه و البقاء فيه .

أفاقت من شرودها عندما هتف رؤوف فجأة :

- هناك أخبار جيدة لكنها لم تتأكد بعد .. سعيد تكلم مع أبي في موضوع السيناريو و قرر أبي أن يعرضه على مخرج معروف ليحكم عليه .. يرى سعيد أن أبي قد يكون مستعداً

لاستثمار جزء من ثروته في شركة إنتاج يستقل سعيد بإدارتها على أن يكون باكورة أعمالها هو الفيلم الذي عملنا عليه أنا و أنتِ معاً .. هذا إذا وافق المخرج على تنفيذه فعلاً .

كان رؤوف يتحدث في فتور جعلها تشعر بالحيرة ؛ فهذا الخبر كان هو ما يتمنى حدوثه فعلاً و المفروض أن يجعله يطير فرحاً الآن لكنها مع هذا كانت تشعر بالحزن يسكن في عينيه حتى في الأيام التالية و التي سبقت الإعداد لحفل الزفاف .

في ليلة الزفاف كانت الفيلا تتلألأ بالأنوار و تصدح بالموسيقى و تمتلئ بالمهنئين و كانت مظاهر السعادة في كل مكان ؛ سماح فحسب هي التي كانت تشعر بالقلق .. عندما ارتدت الثوب الذي اشتراه لها رؤوف شعرت بأنها كالخنفساء الملونة ؛ قد تكون ألوانها زاهية و مبهجة لكن هذا ليس كافياً ليجعلها فراشة .. لها مكان في عالم رؤوف تعرف حدوده جيداً و ليس من حقها أن تتخطاه حتى لا تخاطر بأن تخسر هذا كله .

كادت سماح أن تنزع الثوب عن جسدها و تظل مختبئة داخل الاستراحة لكن رؤوف كان مصراً على وجودها معه بالحفل حتى أنه هددها بأنه لن يحضر الحفل إن لم تحضره معه ..

خرجت سماح إلى الحديقة و هي متعلقة بذراعه لا لأنه يرى بعينيها حتى لا يتعثر كما يقول دائماً بل لأنها بالفعل كانت خائفة و ترتجف و أرادت أن تستمد منه بعض القوة لتستطيع مواجهة عيون الناس التي ستستنكر ما هي عليه و سترفض وجودها و أولهم الدكتورة التي اقتربت منهما و هتفت :

- عودي للاستراحة يا سماح فلا داعي لوجودك هنا .. رؤوف سيلزم أخاه و أصدقاءه و لن يحتاج إلى خدماتك .

كادت سماح أن تنسحب لكن رؤوف أمسك كفها و هو يهتف في حزم :

- بل أحتاج إليها و لن يمكنني الاستغناء عنها .. سعيد و أصدقاؤه بعد نصف ساعة من الآن ستدور رؤوسهم من الخمر و سيحتاجون لمن

يلزمهم و أنا لا أثق في أحدٍ لأعتمد عليه سوى سماح .

التعبير الذي ظهر على وجه شاهندة كان يوحي بالغضب لكنها سيطرت على عواطفها بسرعة و ابتعدت عنهما ؛ ذهبت شاهندة إلى حيث يقف زوجها و هتفت في سخط :

- أرأيت ما يفعله ابنك ؟ .. موضوع تلك الوضيعة بدأ يخرج عن السيطرة و يجب أن نفعل شيئاً حياله .. من كان يتخيل أن مراهقة معاقة و لا شأن لها تستطيع أن تحتوي رؤوف و تحتل حياته على هذا النحو ؟ .

هتف رشدي في ضيق :

- أنتِ من أوقعنا في هذه الورطة و المفروض يا دكتورة أن يكون لديكِ الحل .. أم أن معالي النائبة الموقرة ستعجز عن معالجة مشكلة بسيطة كهذه ؟ .

هتفت شاهندة في حزم :

- بل سأنتزع تلك الحقيرة من حياة ابني كما غرستها فيها و سترى هذا بنفسك .. أنا

شاهندة الجبار و لن أعجز أمام هذه الصعلوكة بل سأعيدها إلى الشارع الذي أتت منه .

كانت شاهندة تنظر بعيون تحترق كالجمر إلى ابنها و سماح و هما يقفان معاً يتهامسان في انسجام قبل أن يقترب منهما سعيد و بعض رفاقه ؛ و هتف سعيد :

- أين تختبئ منا ؟ .. تعالي لنمضي بعض الوقت معاً و اترك سماح لتستمتع بالحفل .. هيا يا رؤوف .. الرفاق يريدون شرب بعض الكؤوس معك .

انسحبت سماح هذه المرة قبل أن ينجح رؤوف في منعها فهي بالفعل لم تكن ترغب في استمرار وجودها في الحفل و الذي يزعج الجميع بشكلٍ واضح و لا تريد أن تكون سبباً في الإيقاع بين رؤوف و بين أهله و أصدقاءه ؛ بينما هتف رؤوف في ضيق :

- تعرف جيداً أنني لا أشرب .. على كل حال أنت تشرب لي و لدزينة من الرجال فلا تشغل بالاً بي .. أنا تعبت وسأعود إلى الاستراحة .

هتف أحد الرفاق في خبث :

- إلى هذا الحد لا يمكنك الاستغناء عنها و لو لدقائق .. الفتاة ساحرة بحق لكنها ليست من مستواك و من الحماقة أن تصبح متيماً بها لهذا الحد .

هتف رؤوف في حدة :

- ماذا تقصد ؟ .. أنا لا أسمح بهذه التلميحات السخيفة ؛ سماح فتاة نقية و شريفة و من يتطاول عليها و لو بكلمة سأقطع لسانه .

هتف سعيد في ضيق :

- لا تتحدث عنها بهذه الثقة لأنهم سيسيئون فهمك .. كلنا نعلم أنها تشاركك نفس الغرفة منذ عامٍ مضى و لو كانت لا تزال نقية كما تدعي فهذا سيفسد سمعتك حتماً .. هل تريد منا أن نصدق أنك لم تلمسها حتى الآن ؟ .. لو كان هذا صحيحاً فعليك أن تخجل من نفسك بشدة لأن أحدنا لو انفرد بها لنصف ساعة فسيدفع جيداً في مقابل الخدمات التي سترحب في أن تؤديها له .. و لا تقل أن فتاة في جمالها لا تؤثر بك لأنك فقدت نظرك و لم تفقد رجولتك أم أنني مخطئ ؟ .

بدا رؤوف منزعجاً من كل ما قاله سعيد حتى كاد أن ينشب شجار بينهما لولا أن تدخل الرفاق و حالا بينهما ؛ ابتعد سعيد مع بعض رفاقه بينما قدم عماد كأساً من الخمر إلى رؤوف وهو يهتف في حزم :

- اشرب هذا لتهدأ أعصابك .. أنا أعرف أنك لا تشرب الخمر لكنك تحتاج إليه الآن بشدة .

كان رؤوف متوتراً كثيراً و هذا ما جعله يستسلم لرغبة عماد و يشرب كأسين من يده قبل أن يعيده عماد إلى باب الاستراحة و يتركه هناك و يعود إلى سعيد و الرفاق و هو يهتف مبتسماً :

- كان لديك حق .. أخوك بالفعل لديه مشكلة كبيرة لكن لا تقلق فأنا قدمت له الحل في كأس البراندي و أنا واثق من أنه لن يظل يحبس نفسه في قوقعة عاهته و سيتصرف كأي شاب في سنه .

هتف سعيد في قلق :

- ماذا وضعت في البراندي بالضبط ؟

هتف عماد في استخفاف :

- منشطات سيحتاج إليها ذلك الأحمق لتحفز رغبته فأنا لا أظن أن فعل الخمر بمفرده يستطيع أن يذيب جبلاً من الثلج مثل أخيك و نريده أن يرفع رؤوسنا في ليلة كهذه .. بالمناسبة .. ماذا عن عريس أختك ؟ .. ألا تحب أن نمنحه هدية مماثلة ؟

الفصل الثامن

أفاق رؤوف من نومه و هو يشعر بألم فظيع يمزق رأسه الذي بدا كصفحة بيضاء تبعثرت فوقها حروف ذكريات الليلة الغريبة التي مرت به .. بدا و كأنه تائه يتخبط في أفكار مفككة و عواطف مضطربة و ذكريات لا يكاد يجزم بما إذا كانت قد حدثت بالفعل أم أنها محض كابوس بعثه في مخيلته شيطان الخمر التي شربها لأول مرة في حياته .

فقط صوت نحيبها الحار هو الذي جعله يستعيد كامل وعيه و هو يهب جالساً في الفراش و قد شعر بغتة بمدى بشاعة ما فعله .. همس باسم سماح و هو يسألها أين هي ؛ لكنها لم تقل شيئاً و ازداد نحيبها ..

غادر الفراش و هو يتتبع مصدر الصوت حتى تعثر بها .. كانت جالسة على الأرض و هي تستند إلى خزانة الملابس وتخفي وجهها بين كفيها ؛ جلس على الأرض بجوارها و هو يهمس :

- سماح .. أنا .. لا أدري كيف فعلت هذا ؛ أنا .. أنا آسف .. سامحيني .

مد يديه و جذبها إلى صدره و ضمها بقوة و هو يردف في لوعة :

- في حياتي لم أفكر في إيذاءك صدقيني ؛ أنا .. أنا أحبك يا سماح .. أحبك من كل قلبي .

ظلت تبكي في صمت وهو يحاول أن يواسيها لكنه لم يكن يجد كلمات تستطيع أن تخفف عنها أو تقلل شعورها بالجرح أو المهانة ؛ أقسم لها لألف مرة على أنه لن يتخلَ عنها وأنه يستطيع أن يتصرف كرجل و يتحمل عواقب تصرفاته ؛ أقسم على أنه سيصارح والديه بحبه لها و أنه سيتزوجها لكنها لم تنطق بحرفٍ واحد و لم تتوقف عن النحيب حتى بدا و كأنها لم تسمعه .

عندما رن جرس الهاتف تجاهله رؤوف لأكثر من مرة قبل أن ينهض و يلتقطه ويتلقى الاتصال ؛ حينئذٍ أتاه صوت والده يهتف في حزم :

- هناك أمور مهمة يجب أن أناقشها معك .. أريدك في غرفة المكتب بعد نصف ساعة .

أنهى والده الاتصال فهتف رؤوف في توتر :

- والدي يريدني في مكتبه .. شيء غريب فهو نادراً ما يجد وقتاً لي ؛ لكنها فرصتي .. سأتحدث معه بصراحة .. سأجعله يفهم كم أحبك وكم أحتاج إليكِ .. سأقنعه بأننا يجب أن نتزوج بسرعة لأنني لا أستطيع أن أعيش بدونك .. صدقيني يا سماح .. صدقيني لهذه المرة فحسب .. أنا فعلاً أحبك .. أحبك من كل قلبي .. و أفضل أن أموت على أن أعيش بدونك .

اغتسل رؤوف بسرعة و ارتدى ثيابه و استعد للذهاب إلى مكتب والده لكن سماح ظلت جالسة على الأرض و هو يسمع صوت أنفاسها بعد أن توقفت عن النحيب ؛ جلس على طرف فراشه وهمس في تردد :

- تعلمين أنني لا أستطيع الذهاب لأي مكان بدونك .. أنا أعمى يا سماح وأنت النور الوحيد الذي يضيء في ظلام حياتي .. خذيني إلى مكتب والدي و اتركيني معه وحدي ؛ لا

أريدك أن تكوني موجودة و أنا أتحدث معه لأنني لن أقبل بأن يجرحك هو أو غيره ولو بكلمة واحدة .. نلتِ مني من الجراح ما يكفيكِ و لن أسمح بالمزيد .. صدقيني يا سماح .. أنا مستعد لأن أتحمل مسئولية إساءتي إليكِ و لن أتخلَ عنكِ أبداً .. أنتِ من الآن زوجتي أمام الله و ستصبحين زوجتي أمام الناس جميعاً سواء وافق والدي على زواجنا أو رفض .. سماح .. هل تصدقيني ؟ .. هل تسمعيني من الأساس ؟ .. سماح .. أين أنتِ ؟

لم تقل سماح شيئاً لكنها نهضت ببطء و نزعت بقايا الثوب الممزق عن جسدها قبل أن تدخل إلى دورة المياه ؛ اغتسلت و ارتدت ثيابها قبل أن تقترب منه .. مدت يدها و أمسكت بذراعه ليستند إليها و يتلمس الطريق إلى الفيلا على هدي عينيها لكن رؤوف أمسك كفها و قبله و هو يهمس :

- بيني و بينك عهد سأفي به حتى لو كان هذا آخر ما أفعله في حياتي .. أقسم لكِ .

سارا معاً إلى الفيلا حيث تركته سماح عند باب المكتب كما طلب منها ؛ دخل رؤوف إلى

المكتب حيث نهض والده و أقبل نحوه ؛ أمسك بذراعه و قاده إلى المقعد الذي أمام المكتب فجلس عليه رؤوف و هو يهتف :

- يبدو أن هناك أمراً خطيراً يا أبي ؛ أليس كذلك ؟ .. نحن لم نجلس معاً منذ شهور و لا نلتقي إلا بمحض الصدفة ؛ فماذا حدث ؟

جلس رشدي خلف مكتبه و هو يهتف في حماس :

- ما حدث هو أنك قد فاجأتني بالفعل ؛ فأنت لم تعد مجرد مراهق أحمق لم يتخطَ الثامنة عشر من عمره بعد .. المخرج / عزيز الشلقاني يرى أنك موهبة فذة و تستحق التقدير حتى أنه متحمس فعلاً لإخراج السيناريو بنفسه و يريد أن يفعل هذا بأقصى سرعة ممكنة .

تهلل وجه رؤوف فرحاً و هو يهتف في سعادة :

- أتعني هذا حقاً يا أبي ؟ .. لا أصدق .

هتف رشدي مبتسماً :

- بل صدق .. المهم الآن هو أنني قد قررت تأسيس شركة الإنتاج السنيمائي من الغد

و سأجعل لك و لأخيك نسبة لا بأس بها في رأس المال كما أنني سأشتري منك السيناريو بالقيمة التي تتناسب مع جودته الفنية لا مع حداثة عهدك بهذا العمل و أنا مستعد لإنتاج كل الأعمال التي ستؤلفها في المستقبل إذا كانت بهذه الجودة .. يجب أن تفخر بنفسك يا رؤوف فأنت تبدأ حياتك العملية بخطوة جبارة و في سن مبكرة جداً .. هنيئاً لك .

كان رؤوف ينتفض من فرط الانفعال فما كان يتحدث عنه والده كان أكبر مما كان يتوقع بكثير خاصةً في هذه اللحظة بالذات .. لكنه فكر في أن هذه التطورات هي الفرصة المناسبة التي منحه لها القدر على غير انتظار ليفاتح والده في الأمر الذي كان أكثر أهمية بالنسبة له .. لذا هتف :

- أشكرك .. أشكرك كثيراً يا أبي .. أعرف أن ما تتحدث عنه خطوة كبيرة جداً في حياتي العملية و لم أكن أتوقع أن تأتِ بهذه السرعة و لكن .. قد يجعلني هذا أطمع في أن تسمعني و تفهمني .. هناك أمر يجب أن أتحدث معك به و هو يهمني ربما أكثر من كل ما قلته .. أنا .. أريد أن أتزوج .

بهت وجه رشدي فقد كان يتخيل أنه يجذب ابنه بعيداً عن العالم الذي يغلقه على نفسه و لا يسمح لأحد بأن يشاركه فيه سوى سماح فإذا به يصر على أن يظل في نفس البقعة و لا يغادرها .. همس رشدي :

- تتزوج ؟ .. ألا ترى معي أنها خطوة غير مدروسة و لا مجال لها الآن ؟ .. شاب في سنك يجب أن يركز على دراسته و مستقبله خاصةً و أنت على أعتاب فرصة كبيرة كالتي أمنحها لك ؛ أما الزواج فسيأتي وقته فيما بعد .

هتف رؤوف في توتر :

- أرجوك يا أبي .. أتوسل إليك .. بالنسبة لي هذه مسألة حياة أو موت و لا يمكن إرجاؤها بعد الآن .. كما أن الزواج لن يؤثر على دراستي أو مستقبلي بل على العكس أنا أستمد من سماح الطاقة التي تمنحني حياتي و بدونها ما كنت أنجزت السيناريو و لا أي شيء في حياتي على الإطلاق .

أشعل رشدي سيجارة و نفث دخانها في هدوء قبل أن يهتف :

- أفهم من هذا أنك ترغب في الزواج من سماح ؛ أليس كذلك ؟ .. هل ترى فعلاً أنها الزوجة المناسبة لك ؟ .. و قبل أن تجيب دعني أقر بأنني أدرك جيداً أنها مهمة في حياتك و أنك بت تعتمد عليها في كثير من شئونك كما أدرك بأن شاب في ظروفك الحالية لن يكون أمامه فرصة كبيرة لتكوين علاقات عاطفية أو أن يمر بتجارب تثقل خبراته ؛ و قد لا تجد فرصة كبيرة في الحصول على زوجة تناسب مركزك الاجتماعي .. ومع هذا هل تظن أن سماح هي الزوجة التي تليق بابن وزير ؟ .. هل هي المرأة التي سترفع رأسك أمام زوج أختك ووالده المليارديرو أمام أنسباء أخيك فيما بعد ؟ .. أنا يا ابني لن أقف في طريق سعادتك و لا أفكر في حرمانك من هذه البنت ما دمت متعلقاً بها لهذا الحد لكن في الحدود التي تضع علاقتكما في الإطار الذي يليق بها .. سماح هذه خادمة .. مجرد خادمة .. و إذا كنت تحتاج إلى أكثر مما تمنحه لك في الوقت الحالي فأنا سأدفع لها ما يتناسب مع الخدمات التي ستؤديها لك فأنا أعلم أن أمك بخيلة و لا تدفع لها ما يكفي لتغطية هذا النوع من الخدمات .

احتقن وجه رؤوف بشدة ؛ كان يستمع إلى والده في صمت و دماء الغضب تندفع في عروقه قبل أن ينهض واقفاً و هو يهتف في حزم :

- هذه آخر مرة أسمح لأحدكم بأن يتحدث عن سماح بهذه الطريقة .. سماح ليست رخيصة و هي ليست جارية لتشتريها بمالك من سوق الرقيق .. سماح زوجتي .. زوجتي .. هل تفهم هذا ؟ .. عاهدتها أمام الله و لن أخذلها و إذا كان الزواج بالنسبة لكم هو ورقة يحررها المأذون فبالنسبة لي هو عهد و ذمة و سأعلن زواجي منها أمام الجميع وإذا لم تكن مستعداً لأن تحرر عقد زواجنا الآن فسأحرره بنفسي بمجرد أن أبلغ سن الرشد .

هب رشدي واقفاً و هو يهتف في غضب :

- هل تتحداني يا ولد ؟ .. ألا تدري ماذا يمكنني أن أفعل بك ؟

هتف رؤوف في هدوء :

- يمكنك أن تطردني من جنتك لو أردت .. يمكنك أن تلغي مشروع الشركة و السيناريو وكل شيء ؛ و قد تطردني من البيت .. لكن

تأكد من أنه لا مانع لديّ من أغادر الفيلا و أن أنام على الأرصفة ما دامت زوجتي في حضني و لا أحد يستطيع أن ينتزعها مني .. المشكلة يا سيادة الوزير هي أنك لن تستطيع أن تفعل هذا .. لا لأنني ابنك و لكن لأنك لن تحب أن يقال أن ابن الوزير العظيم يتسول لقمته من الشارع .

غادر رؤوف مكتب والده و هو يتلمس الطريق بينما والده يغلي غضباً ؛ ساعده أحد الخدم على العودة إلى الاستراحة لكنه لم يجد سماح موجودة ؛ رن على جرس هاتفها المحمول ليسألها إلى أين ذهبت لكن الهاتف كان مغلقاً ؛ أخذ يجري في الحديقة و هو يتعثر و يناديها بعلو صوته لكنها لم تكن موجودة ؛ لم يكن أحدٌ من الخدم قد رآها منذ تركته عند باب المكتب بينما أخبره بواب الفيلا بأنها قد خرجت وحدها و استقلت سيارة أجرة و لم تخبره عن وجهتها .

لأيام طويلة مريرة ظل رؤوف حبيس غرفته و دموعه و ظلام حياته ؛ لم يكن يتخيل أن سماح من الممكن أن تنسحب من حياته هكذا في صمت و بدون كلمة واحدة وتتخلى عنه .. لم يكن ينكر أنه قد جرحها و أذاها لكنه كان ينتظر منها أن تصدقه و تثق به .. كان عليها أن تصدقه و أن تثق به .. كان عليها أن تدرك أن مشاعره نحوها صادقة و حقيقية حتى لو فقد رشده للحظة و عاملها بمنتهى الحقارة .. كان مستعداً لأن يخوض حرباً من أجلها و لم يتخيل أنها ستنسحب من المعركة من قبل أن تبدأ و ستنسحب من حياته كلها .. تعرف أنه لا يطيق الحياة بدونها ؛ فكيف هان عليها أن تعيش بدونه ؟ .. و كيف ستعيش بدونه ؟ .. ليس لها أهل أو مال و لا أحد يمكن أن يرعاها أو أن يعطف عليها ؛ و لا ينتظرها في الغابة المخيفة التي خرجت إليها سوى ذئاب لن تتردد لحظة في أن تنهشها ؛ فلما فرت من حضنه و هجرته ؟ .. سؤال عاش لسنواتٍ طويلة دون أن يجد له إجابة .

الفصل التاسع

مد رؤوف أنامله ليمسح دمعة انهمرت على أهدابه و هو يتنهد في حرارة و يفيق من سيل الذكريات الذي أغرق عقله بغتة ؛ سنوات طويلة مرت منذ خرجت سماح من حياته و لا زال يأمل في أن يعثر عليها مرة أخرى ؛ و يخيل إليه أحياناً أن هذا الأمل الأحمق محض سراب لن يتحقق أبداً قبل أن يموت .

ن

هض رؤوف وألقى بضعة أوراق مالية فوق طاولة الطعام التي لم يمس شيئاً مما كان عليها قبل أن يذهب إلى الغرفة التي استأجرها و يستلقي في الفراش دون أن يفتح حقيبته أو يستبدل ثيابه .. هو لم يكن يرغب في أن ينام بل كان كل ما يريده هو أن يغمض عينيه و يعود إلى الظلام الذي كان يعيش فيه في يومٍ من الأيام عل صوت سماح الحنون يخترق الظلمة و يضئ حياته من جديد .

لا ينكر رؤوف أن أسوأ أيام عاشها في حياته لم تكن الأيام الأولى بعد إصابته بالعمى و إنما هي تلك التي عاشها بعد أن غربت شمس سماح عن حياته ؛ كان

يشعر بتعاسة لا حدود لها و يمزق قلبه ألمٌ لا يمكن وصفه و هو يضرب حول نفسه ستاراً من العزلة لم يكن أحد من سكان الفيلا يستطيع اختراقه ومع هذا لم يتوقفوا قط عن المحاولة .

اكتشف رؤوف فجأة أن سماح كانت فتاة قليلة الكلام عن نفسها جداً و أنها كانت تسمعه طوال الوقت لكنها لم تحكي له عن الكثير من تفصيلات حياتها المهمة ..

كان يعلم أن والدها لا زال على قيد الحياة لكنه لم يكن يعلم ما اسمه أو مهنته أو حتى على الأقل أين كانت تقيم معه قبل أن تنتقل إلى الفيلا ؛ و قد أغرق أذني الدكتورة بسيلٍ من الأسئلة من هذا النوع لكنها ادعت أنها ليس لديها إجابة و عندما ازداد إصراره هتفت في حدة :

- انساها يا رؤوف .. انساها .. تلك الحقيرة خرجت من عالمك ولن يكون لها مكان فيه بعد الآن أبداً .

هتف رؤوف في مرارة :

- لن أنساها .. و العالم الذي لا تكون سماح موجودة به لا يستحق أن أعيش فيه .. سأخضع للجراحة .. شئتم أم أبيتم سأخضع للجراحة .. لأنني إن لم أحيا مع سماح فالأفضل لي أن أموت .

هتفت شاهندة في ثورة :

- فليكن .. اخضع للجراحة كما تشاء .. فأنا أفضل أن أراك ميتاً على أن أرَ تلك الوضيعة في حياتك من جديد .

لبعض الوقت كان رؤوف يتساءل عما إذا كان من الممكن أن يعثر على سماح لو لم يكن أعمى لكنه بعد الأسابيع الطويلة التي قضاها في المستشفى وخرج بعدها و هو يبصر كل ما حوله كان يعرف أنه من المستحيل أن يجدها مرة أخرى فقد كان وهو يجهل كل شيءٍ عنها حتى شكلها كمن يبحث عن إبرة في كومة من القش .

ظل رؤوف لبضعة أشهر يبحث عن سماح دون جدوى قبل أن يقرر الاستسلام للأمر

الواقع .. سماح هي التي قررت الخروج من حياته ولو كانت تحبه ولو نصف حبه لها لعادت بحثاً عنه .. لكنها لم تفعل و لم يعد بوسعه أن يظل أسيراً لأمل يستحيل تحقيقه لذا قرر أن ينسَ الماضي و يطوي صفحة سماح من حياته ويتطلع إلى المستقبل لكن حتى هذا لم يكن بالسهولة التي يتمناها .

كان العذاب كل العذاب هو العيش في الاستراحة التي كان يشعر طوال الوقت بأن أنفاسها الدافئة لا تزال تتدفق بين جدرانها ؛ و لم يكن يستطيع أن يعيش في الفيلا وهو يشعر بأن كل جسور المودة التي كانت تربطه بسكانها قد تمزقت بلا رحمة .. وفي النهاية أدرك أنه لا يستطيع العيش في القاهرة بأسرها لأنه لن يحتمل أن يعيش الباقي من عمره وهو يحدق في وجوه الناس بحثاً عن شبح لا يعرف له ملامح .. لذا قرر رؤوف السفر .

لعشر سنوات كاملة ظل رؤوف يعيش في أمريكا دون أن يفكر في العودة إلى مصر أو زيارة أهله و لو لفترة وجيزة ؛ درس

الإخراج كما كان يرغب في الماضي فقد كانت هذه هي الأمنية الوحيدة التي بات يستطيع تحقيقها بعد أن أصبحت أكبر أمنية في حياته هي أن يستعيد فتاة لم يرها في حياته ولا لمرة واحدة .

حاول رؤوف أن يؤسس لنفسه حياة عملية بعد أن أنهى دراسته فتعامل مع الكثير من شركات الإنتاج و شارك في بعض الأفلام لكن هذا لم يكن كافياً لتحقيق طموحه و لا لشغل فراغ حياته لذا قرر أخيراً العودة إلى أرض الوطن ؛ و كان هذا القرار مفاجئاً للجميع حتى أنه لم يخبر أحداً به و لا حتى لينتظره في المطار وفوجئوا بالسيارة الأجرة التي توقفت داخل الفيلا و غادرها رؤوف .

بدلاً من أن يدخل رؤوف إلى الفيلا دخل إلى الاستراحة ؛ كان بابها مفتوحاً و بدا و كأنها كانت تنتظره و هي على أهبة الاستعداد للترحيب به ؛ يتذكر كل كلمة دارت بينه و بين سماح و كل لحظة عاشها معها بين هذه الجدران و لا زال يشعر بأنفاسها الدافئة و صوتها العذب و روحها الطاهرة و كأنها لا

تزال موجودة هنا في انتظاره .. لكن هذا كان دائماً هو الحلم الذي يستحيل تحقيقه .

أصر رؤوف على أن يقيم في الاستراحة و رفض تماماً فكرة أن يقيم في غرفته القديمة في الفيلا ؛ كان يشعر بالنفور من عائلته و لا يرغب في الإختلاط بها إلا في أضيق الحدود .. لا أحد منهم انتزع سماح من حياته و عذبه بفقدها ؛ لكنهم جميعاً جرحوها و أهانوها و تسعدهم كثيراً تعاسته بفقدها و هو لا يستطيع ألا يلومهم على هذا .

زار سعيد شقيقه في الاستراحة و هو يتأمل المكان قبل أن يهتف في ضيق :

- المكان هنا لم يعد يناسبك ؛ لما لا تشتري فيلا جديدة و تستقر بها ؟ .. و لو اخترت الزوجة التي تشاركك فيها فسيكون هذا ممتازاً فعلاً فأنت لم تعد صغيراً و الزواج خطوة أجلتها بما يكفي و ربما آن أوانها .

هتف رؤوف في هدوء :

- أنوي شراء شقة بالفعل لكن الزوجة التي أريد أن تشاركني فيها لا يمكنني معرفة مكانها بعد

.. لكنني قد أجدها ذات يوم و سأجهز لها السكن الذي سيضمنا معاً من الآن .

هتف سعيد في سخط :

- لا أصدق .. ألا زالت تلك الوضيعة تسيطر على تفكيرك ؟ .. متى ستتخطى مراهقتك و تمزق تلك الصفحة القديمة ؟

هب رؤوف واقفاً و هو يهتف في ثورة :

- سماح ليست وضيعة ؛ كانت نقية حتى أكرهتني على إذلالها و تدنيسها .. هل تتخيل أنني لازلت أعمى و لم أرَ بعد الدور الحقير الذي لعبه عماد بتحريضٍ منك ؟ .. صديقك وشى بك و لا تظن أنني سأسامحك أبداً على أنك مزقت ما بيني و بينها ؛ و جعلتني أتعذب بخسارتها لسنواتٍ طويلة و ربما أظل أتعذب بها إلى آخر عمري .. الوضيع الوحيد الذي أعرفه هو أنت يا سعيد و لا أصدق أنك تستطيع أن تحكم عليها و تنسى أنك أنت المدان الأول في كل ما قاسته المسكينة و لا زالت تقاسيه .

نهض سعيد و هتف في برود :

- النقية التي تدافع عنها هجرتك بملء إرادتها لتكمل حياتها في شقق الدعارة .. و إذا كنت لا تزال أعمى و لا تريد أن ترَ الحقيقة العارية التي يراها الجميع يمكنك أن تسأل عنها في اصلاحية البنات .

غادر سعيد الاستراحة و ترك خلفه رؤوف باهت الوجه ؛ يستطيع أن يتخيل الظروف الصعبة التي مرت بها بعد أن خرجت من حياته لكنه لم يكن يستطيع تصديق سعيد .. يعرف أنه يكره سماح .. جميعهم يكرهون سماح .. لكنه لا يعرف كيف يجرؤ على تلفيق كذبة كهذه و هو يعلم أن رؤوف يستطيع أن يتحقق منها بسهولة .. أم أنها لم تكن كذبة ؟

بعد عدة أيام دخل سعيد إلى الاستراحة حيث كان رؤوف مستلقياً في فراشه و هو يدخن في شراهة ؛ فتح سعيد باب الشرفة ليسمح بدخول الهواء و هو يهتف في تذمر :

- إلى متى ستستمر على هذا الحال ؟ .. أنت لم تغادر هذه الغرفة منذ ثلاثة أيام .. الدنيا لن تتوقف لأنك اكتشفت أن القديسة سماح ليست

كما تتخيلها و أظن أنك قد ذهبت إلى الإصلاحية و تأكدت بنفسك من أنها بالفعل كانت موجودة هناك .

هتف رؤوف في مرارة :

- لكنني لم أعثر عليها هناك .. بلغت سن الرشد منذ بضع سنوات و قد انتهت مدة عقوبتها و لا أحد يعلم أين ذهبت بعد أن تركت الإصلاحية .. ليتني عثرت عليها .. ليتني فعلت .. أنا و أنت دمرنا المسكينة و حطمنا حياتها و ليس لك أن تلومها على أننا جنينا عليها و سلبناها شرفها .

جلس سعيد و هتف في سخط :

- من الواضح أنك حالة ميئوس منها فعلاً .. دعنا من سماح الآن و فكر في مستقبلك .. ما الذي تنوي أن تفعله ؟ .. فكرة شركة الإنتاج لا زالت قائمة و أبي ليس لديه مانع من أن نبدأ في تنفيذها معاً .. الشركة ستكون ملكاً خالصاً لك و ستختار من يتولى إدارتها بنفسك .. لكنني سأتابع سير العمل بها كباقي شركات أبي و تحت إشرافه حتى تستقر الأمور و تقف

على قدميك بها .. ما رأيك في أن نحدد خطواتنا من الآن ؟

الفصل العاشر

كان رؤوف يدرك أنه لا جدوى من البكاء على اللبن المسكوب و أنه لا شيء سيعيد سماح إلى حياته بعد الآن ؛ حياته التي لم يكن لها طعم و لا معنى و كانت تمر في مللٍ و رتابة رغم أنه مضى في خطوات تأسيس الشركة كما اقترح سعيد ثم بدأ في التجهيز للفيلم الأول الذي ستتولى الشركة انتاجه .. نفس السيناريو الذي عملا عليه هو و سماح معاً بعد أن أدخل عليه بضع تعديلات بسيطة .

خلال بضعة أشهر كان رؤوف قد انتهى من تنفيذ الفيلم الذي تم عرضه في دور السينما ولاقى نجاحاً كبيراً سواء جماهيرياً أو على مستوى النقاد كما تم ترشيحه لنيل جائزة أفضل مخرج في مهرجان القاهرة السينمائي و قد اعتبرت الدكتورة شاهندة فوز ابنها بهذه الجائزة عن باكورة أعماله مناسبة تستحق الاحتفال .

لم يكن رؤوف متحمساً لحضور الاحتفال الذي أصرت شاهندة على أن تقيمه في الفيلا و دعت إليه

عدد كبير من الوزراء و نواب البرلمان و رجال الأعمال بالإضافة إلى الفنانين و عدد كبير من الصحفيين المعروفين جداً و باقة من نجوم المجتمع و بخاصة الشابات الجميلات من بنات الأسر الراقية و اللاتي في سن الزواج .

وقف رؤوف في زاوية بعيدة في الفيلا و كأنه يعتزل العالم المزدحم الذي تصر أمه على أن يغرق فيه ؛ لم يكن يشعر بالسعادة بالفيلم الذي حقق له شهرة واسعة و مكانة كبيرة بين شباب المخرجين و لا بالجائزة التي توجت بداية مشواره العملي .. بل بالأحرى أنه لم يكن يشعر بشيءٍ على الإطلاق .

فكر رؤوف في مرارة في أن التعاسة التي سكنت وجدانه لسنواتٍ طويلة تركته في النهاية فاقد الحس ؛ لذا لم يكن أي شيء يحدث له يثير شعوره على الإطلاق و لم يكن يدري إلى متى سيظل يرى الحياة وهو لا يشعر بأن له مكاناً فيها ؟ .. إلى متى سيعيش كالموتى بلا شعور ولا أمل ولا هدف ؟ .. حياة هي كالموت بل ربما كان الموت أفضل منها بكثير .

اقتربت شاهندة من رؤوف و على وجهها ابتسامة مصطنعة تماماً ككل شيءٍ بها ؛ كانت تجيد التمثيل أكثر من أية ممثلة يمكن أن يستعين بها رؤوف في أفلامه أو على الأقل هذا ما جال في ذهن رؤوف و هو ينظر إلى أمه التي وضعت يدها على كتفه و هي تهتف :

- أنت نجم الحفل و ليس من الطبيعي أن تختبئ في الزاوية على هذا النحو .. كل من هنا جاءوا لك و لأجلك و يجب أن تعامل ضيوفك باهتمام ومودة لا أن تتجاهلهم على هذا النحو .

هتف رؤوف في هدوء :

- نصف الموجودين هنا لا أعرفهم يا أمي .. زملاءك في المجلس و زملاء سيادة الوزير و حتى منافسيه من رجال الأعمال و هلم جرا .. ولا تقولي أنهم قد جاءوا لأجلي بل هم هنا من أجلك أنتِ وزوجك .. للمصالح التي بينكما و هي كثيرة و لا تنتهي و أنا لست طرفاً فيها و لا أحب أن أكون .

ابتسمت شاهندة وهي تهتف :

- ألا تلاحظ سوى رجال السياسة و المال ؟ .. فاتك يا فنان أنهم هنا جميعاً بأسرهم و كل الموجودين تم اختيارهم بدقة لأن لديهم بنات في سن الزواج أم أنك لم تلاحظ أن المكان يعج بالجميلات .

هتف رؤوف في استخفاف :

- و معرض العرائس هذا لأجل من ؟ .. تزوج سعيد منذ سنتين ولديكِ حفيد الآن ؛ و كان من الممكن أن يكون لكِ أحفاد آخرون لو أن سماح وثقت بي و لم تهرب مني لكن للأسف يبدو أنه ليس مقدراً أن يكون لي أولاد .

احتقن وجه شاهيناز بشدة وهي تهتف :

- إياك أن تذكر تلك الوضيعة مرة أخرى .. أفضل أن تموت قبل أن تجعل تلك المومس زوجة لابني و أماً لأحفادي .. هل تفهم ؟ ..

ابتعدت شاهيناز عن رؤوف و هي تحاول أن تسيطر على غضبها حتى لا يرى الضيوف انفعالها و يبدؤون بالتساؤل ؛ لكن سعيد لمحها و هي تتحدث مع رؤوف و أدرك أنه قد

أغضبها كالعادة لذا اقترب منه و هو يهتف في هدوء :

- أين كأسك ؟ .. أريد أن نشرب نخب نجاحك .

هتف رؤوف في ضيق :

- تعرف أنني لا أشرب الخمر .. فعلت هذا لمرة واحدة من قبل و عشت لأندم عليها إلى آخر عمري ولست في حاجة للمزيد من الخطايا في حياتي .. تكفيني خطايا الماضي التي لا أستطيع أن أمحوها .

مط سعيد شفتيه و هو يهتف :

- دعنا من الخمر و ماذا عن الرقص ؟ .. لأن نورهان معجبة بك وأظن أنها ستسعد كثيراً لو دعوتها إلى الرقص .. نورهان فتاة ممتازة جداً .. يكفي أنها شقيقة زوجتي و سترث نصف ثروة حمايا العزيز و ما أدراك ما حجم ثروته !! .. ما رأيك ؟ .. الرجل ليس له ولد و إذا نجحت هذه الزيجة سيخرج كلانا بالجمل و ما حمل .

أشاح رؤوف بنظره عن أخيه وهو يهتف :

- شكراً على العرض .. لديّ زوجة بالفعل و لن أحنث بعهدي معها لا لأجل نصف الجمل الذي تحلم به ولا لأجل ثروات الدنيا بأسرها .. ربما كان من الأفضل لو تنزع أنت و أمنا العزيزة فكرة زواجي من رأسكما لأنني لن أتزوج أبداً .. هل هذا مفهوم ؟

غادر رؤوف الحفل الذي لما ينتهِ بعد ؛ متجاهلاً غضب أمه و سخط أبيه واستنكار أخيه و استغراب باقي الضيوف من انسحابه من المكان بهذه السرعة ؛ دخل إلى الاستراحة وقرر أن يقضي ليلته بها رغم أنه لم يعد مقيماً فيها لكنها كانت فرصة ليشعر بأنه قد عاد مرة أخرى إلى حضن الجدران التي حوته هو و حبيبته معاً في يوم من الأيام .

في الصباح الباكر غادر رؤوف الاستراحة والفيلا كلها ؛ كان الوقت مبكراً على الذهاب إلى الشركة فذهب إلى شقته الجديدة التي في شارع جامعة الدول أولاً حيث اغتسل و بدل

ثيابه و تناول فطوره بمفرده كالعادة قبل أن يغادر الشقة متجهاً إلى الشركة ..

كان يرغب في الإعداد للفيلم الجديد بسرعة لا ليستفيد من النجاح الكبير الذي حققه الفيلم الأول و يجني ثماره بسرعة بل لأن حياته لم يعد فيها سوى العمل ؛ فهو الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يستغرق تفكيره و ينقذه من الضياع في تعاسته و بؤسه و وحدته .

كان رؤوف في مكتبه يراجع السيناريو الجديد وهو يفكر في فريق التمثيل الذي سيختاره بدقة قبل أن يبدأ في تنفيذ الفيلم عندما أتى إلى زيارته شخص لم يكن يرغب في رؤيته على الإطلاق .. عماد .. كان الود مفقوداً بينهما منذ حفل زفاف هايدي لكنهما التقيا بضع مرات في مناسبات مختلفة وتحدثا للحظات عابرة كما أن مكتب الديكور الذي يديره عماد هو الذي تولى ديكورات مقر الشركة بناء على عقد أبرمه سعيد معه .

لم يكن رؤوف يعلم لما قد يرغب عماد في مقابلته لكنه مع هذا لم يرفض استقباله لكن

وجهه كان خالياً من التعبير و هو يصافحه حتى أن عماد هتف :

- أعلم أنها زيارة غير متوقعة كما أنها قد تكون غير سارة و لكن .. أنت شقيق أقرب صديق لي و قد تربينا معاً تقريباً و هذا يجعلني آمل في أن .. هل تسمح لي بالجلوس أولاً ؟

أشار له رؤوف بالجلوس أمام مكتبه دون أن ينطق بحرفٍ واحد فجلس عماد قبل أن يهتف :

- سمعت من سعيد أنك ترغب في وجوه جديدة لتشارك في العمل في فيلمك الجديد و فكرت في أنك قد تمنح فرصة لفتاة موهوبة جداً ومعجبة كثيراً بفيلمك الأول .. هي قريبة زوجتي و صديقتها المقربة و عندما طلبت مني زوجتي أن أتوسط لها لديك لم أستطع أن أقول لها لا .. أعرف أنك قد لا تقبل وساطتي و لكنني آمل في ألا تخذلني أمامهما .

هتف رؤوف في اقتضاب :

- لا وساطة في الفن يا باشمهندس .. يمكنني أن أختبرها بنفسي إكراماً لخاطر زوجتك لكن لو

لم تكن موهوبة بما يكفي فأنا آسف .. لن يكون لها مكان في فيلمي .

نهض عماد وهو يهتف في ارتباك :

- لا آمل في أكثر من هذا .. الفتاة موجودة هنا و سأذهب الآن وأترك لك الفرصة لتحكم على مواهبها بنفسك .. يمكنها أن تشق طريقها بنفسها بعد أن مهدنا أمامها الخطوة الأولى .. أقصد أن زوجتي ستكون ممتنة لأنك أتحت لها الفرصة .. اسمح لي بالانصراف .

غادر عماد المكتب بعد أن فتح بابه على مصراعيه لتدخل منه رنا .. وكان هذا كافياً لتضع في حياة رؤوف خطوتها الأولى .

الفصل الحادي عشر

دخلت رنا إلى المكتب و أغلقت الباب خلفها قبل أن تلتفت نحو رؤوف الذي أشعل سيجاراً وأخذ يتأملها في تركيز .. كانت شقراء فارهة الطول ؛ نحيفة الجسد ؛ شديدة الجاذبية ترتدي قميصاً أحمر اللون و تنورة بيضاء قصيرة جداً تكشف عن روعة سيقانها .. تبدو صارخة الجمال لكنها لم تكن من النوع الذي يروق له فقد كان من الواضح أنها جريئة جداً و شديدة الثقة بنفسها لكن رؤوف فكر في هدوء في أنها من النوع الذي ستحبه الكاميرا جداً و لو كانت موهوبة فعلاً فسيكون لها مكان حتماً في الفيلم الجديد .

أشار رؤوف للفتاة بالجلوس أمام مكتبه وهو يهتف في فضول :

- تبدين لي مألوفة بعض الشيء .. أين رأيتك من قبل ؟

هتفت الفتاة في ضيق :

- لم أكن أعلم أنني باهتة و عديمة التأثير لهذا الحد .. عملت معك في فيلمك الأول .. صحيح أنه كان دوراً صغيراً جداً لا يزيد عن جملتين لكنني ظننت أنني قد ألفت نظرك لي

لكن من الواضح أن هذا لم يحدث للأسف .. و قد يعني هذا أنني قد فشلت في الاختبار قبل أن أشرع به .. آسفة على إضاعة وقتك واسمح لي بالانصراف .

ضحك رؤوف و هو يهتف :

- بل ربما يعني أنني ضعيف الذاكرة فعلاً و لا أعثر على المواهب بسهولة .. على كل حال التي مثلت في فيلمي لم تكن شقراء لهذا الحد أم أنني مخطئ ؟

ابتسمت الفتاة و هتفت :

- بدلت مظهري قليلاً بالفعل .. هل يعني هذا أنك تتذكرني ؟

نهض رؤوف و هو يهتف في جدية :

- بل يعني أنه لا زالت أمامك فرصة .. سأجري لك اختباراً أمام الكاميرا غداً في العاشرة صباحاً و بعدها نستطيع أن نحكم .. هذا يعني أنني أسمح لكِ بالانصراف الآن لكنني سأكون في انتظارك غداً .. و إذا خففتِ من مهرجان الألوان هذا فسيكون هذا أفضل .

أتت رنا لأداء الاختبار في الموعد الذي حدده لها رؤوف تماماً ؛ كانت ملهوفة على أن تبرز كل مواهبها أمامه و أن تثبت له أنها ممتازة من كل الوجوه و عليه أن يمنحها فرصة .. فرصة كبيرة .. و كادت أن تطير من السعادة عندما اعترف رؤوف بأنها موهوبة فعلاً و أن فتاة بجمالها و موهبتها يمكن أن تشق طريقها بسرعة في هذا العالم .

كانت رنا فتاة جذابة و لطيفة و مجتهدة و عندما عرض عليها رؤوف الدور النسائي الثاني في فيلمه كادت أن تعانقه ؛ و كان أكثر ما يقدره رؤوف فيها هو دقتها في مواعيدها و تفانيها في عملها كما كانت رفقتها مسلية و جعلته يحب قضاء الكثير من الوقت معها و لا حديث لهما سوى عن طموحاتها في عالم السينما و المشروعات التي يخطط رؤوف لتنفيذها من خلال شركته .

خلال شهور قليلة انتهى رؤوف من تنفيذ الفيلم و تم عرضه وحقق نفس النجاح الذي حققه الفيلم الأول و ربما أكثر ؛ حتى أن رؤوف قد شارك به في أكثر من مهرجان

عربي و دولي وحصد عدة جوائز أهمها في نظره كان جائزة أحسن ممثلة مساعدة و التي حظت بها رنا فقد كان هذا دليلاً على حسن اختياره ؛ و جعل سمعته في الوسط تتزايد باعتباره صانع نجوم و ليس مجرد مخرج مبتدئ .

هذه المرة لم تفكر شاهندة في إحياء حفل جديد فقد كانت علاقتها مع رؤوف قد وصلت إلى طريق مسدود بينما عجزت عن إقناعه بفكرة الزواج التي صارحها رؤوف بمنتهى الحزم بأنه قد ألغاها من عقله نهائياً و لم يكن هذا يروق لها و لا لأي أحد من عائلته لكن رؤوف لم يكن يهتم برأي أحد .

حاول رؤوف كثيراً أن يتجنب والديه و أخاه الوحيد لكن عودة شقيقته هايدي من السفر جعلته مضطراً للذهاب إلى الفيلا و الترحيب بها خاصةً أنه لم يرها منذ استعاد بصره و سافر إلى أمريكا فقد انتقل زوجها في نفس الوقت تقريباً للعمل في سفارتنا في ايرلندا و قد لحقت به بمجرد أن وضعت حملها و هي تحمل ابنها الرضيع بين ذراعيها و لم

تأتِ لزيارة مصر و لا لمرة واحدة منذ استقر رؤوف بها .

عندما طلب رشدي من رؤوف أن ينتقل للإقامة معهم في الفيلا لبضعة أسابيع إكراماً لأخته التي كان من المفترض أن تقضي معهم إجازة زوجها السنوية ثم تعود من حيث أتت وافق رؤوف على مضض فقد وقع في غرام ابن أخته منذ أول لحظة و لم يحب أن يضيع فرصة البقاء مع هذا الصغير الرائع و لو لبضعة أسابيع حتى أنه أرجأ التفكير في فيلمه الجديد حتى تنتهي إجازة هايدي وتسافر هي و ابنها .

خرج رؤوف للتنزه مع ابن أخته عدة مرات فقد كان يريد أن يستمتع برفقة الصبي و أن يجعله يرى الأماكن الجميلة في بلده و التي لم يرها من قبل فأخذه إلى الأهرام والبرج و مدينة الإنتاج الإعلامي و حديقة حيوانات الجيزة و حتى إلى المتحف المصري و قلعة صلاح الدين ..

كان يشعر بسعادة غريبة و هو برفقة الولد الذي كان يجعل الدموع تنهمر من عيونه أحياناً وهو يفكر في سماح .. لو لم تهرب منه لربما كان لديهما الآن ابناً رائعاً في مثل سن هيثم و لكانت السعادة هي الشعور الذي يملأ قلبه و وجدانه طوال الوقت لكن هذا لم يحدث للأسف .

كان رؤوف يلعب الشطرنج مع هيثم في حديقة الفيلا عندما اقترب منه رشدي و هتف مبتسماً :

- صبيٌ رائع ؛ أليس كذلك ؟ .. الشيء الوحيد الذي يخفف مصيبة الزواج هو الأطفال ؛ لولا وجودهم لانتحرنا جميعاً لنتخلص من القيد الذي ورطنا أنفسنا به و نحن في غفلة .. أحسدك أحياناً على أنك لم تقع في فخ الزواج حتى الآن لكنني آسى لأجلك في نفس الوقت لأنك تحرم نفسك من أن تكون أباً لطفلٍ مثل هيثم .. السعادة التي تشعر بها و أنت معه لا تقارن بالسعادة التي يمكن أن تشعر بها و أنت تلعب مع طفلٍ من صلبك و يحمل اسمك .

هتف رؤوف في مرارة :

- كان من الممكن أن يكون لي طفل مثله أو حتى دزينة أطفال لو قبلتم وجود سماح في حياتي و ساعدتموني في العثور عليها قبل فوات الأوان .

هتف رشدي في ضيق :

- أنت كبرت يا رؤوف .. من الحماقة أن تظل متمسكاً بعواطف المراهقة الغبية حتى الآن .. سماح هذه مجرد تجربة لا أكثر و لا أقل و عليك أن تتخطاها .. لحسن الحظ أن شاهي قد تداركت غلطتها في الوقت المناسب وانتزعتها من حياتك قبل أن تتدهور الأمور و يصبح من المستحيل تداركها لأن سماح ليست هي الفتاة التي تستحق أن تحمل اسمك و اسم عائلتك و أقل وجود لها في حياتك كان سيوصم اسم عائلة الصياد كلها بالعار .

هب رؤوف واقفاً و هو يهتف في حدة :

- ما معنى أن أمي قد انتزعت سماح من حياتي ؟ .. سماح فرت مني بإرادتها لأنني جرحتها و لم تستطع أن تسامحني أو تثق بي

.. قل الحقيقة يا أبي لو سمحت .. هل كان لأمي دخل في خسارتي لـ سماح ؟

بهت وجه رشدي وهو يدرك أن لسانه قد انزلق بما لم يكن له أن يبوح به ؛ كان من الحماقة أن يفتح هذا الباب الآن خاصةً أن ابنه لا يريد أن يتخلَ عن حبه للفتاة التي هربت منه وخذلته فماذا لو علم بأبعاد المؤامرة التي حاكتها شاهندة لتتخلص من الفتاة و تمحوها من حياة ابنها ؟ ..

زفر رشدي في حرارة و هو يفكر في أن الكثير من حقائق الماضي يجب أن تظل في جحورها خافية عن عيون رؤوف ؛ لكن هذا لا يمنع من أنه مضطر لأن يمنحه بعض الإجابات الآن و لكن في أضيق الحدود .. هتف رؤوف في إصرار :

- أرجوك يا أبي .. أتوسل إليك .. أين سماح ؟ .. أنتم تعرفون أين هي و تخفون هذا عني ؛ أليس كذلك ؟ .. أنا غبي .. كان يجب أن أدرك هذا منذ أخبرني سعيد عن موضوع الإصلاحية .. كان يجب أن أفهم أنني الوحيد

الذي يجهل أين ذهبت و كيف ذهبت .. اللعنة !! .. كيف كنت أعمى لهذا الحد ؟

هتف رشدي في توتر :

- لا أحد يعلم أين سماح الآن .. أقسم لك .. أنا لا أنكر أن شاهي هي التي طردتها من الفيلا و أعادتها إلى أبيها .. كانت تدافع عن ابنها ومستقبله و لا أحد يستطيع أن يلومها على هذا حتى أنت .. سماح مجرد فتاة من قاع المجتمع و كان من الحماقة أن تسمح شاهي بأن يكون لها مكان في حياتك من الأساس و قد عادت إلى البيئة المنحلة التي تنتمي لها .. وآخر أخبارها هي قضية الدعارة و إيداعها في الإصلاحية وبعد هذا لا أحد منا يعلم إلى أين ذهبت لكن هذا متوقع طبعاً .. فتاة مثلها ليس مقدراً لها سوى أن تعيش في الوحل لأن هذا مكانها الطبيعي و قدرها الحتمي و لا أحد كان يستطيع تغييره .. حتى أنت .

الفصل الثانى عشر

استلقى رؤوف في فراشه في تلك الغرفة في الاستراحة و هو يبكي في حرقة ؛ يستطيع الآن أن يدرك أن سماح لم تتركه بملء إرادتها كما كان يتخيل ولكنهم انتزعوها منه .. كل من كانوا يقفون في وجه حبه استطاعوا هزيمته و انتزعوها منه .. لا يعرف كيف عاشت بعد أن خرجت من حياته .. كانت تقول له أنها تفضل الموت على أن تعود إلى العالم الذي جاءت منه و إلى الأب الذي لن يتوانى عن استغلالها و التنكيل بها خاصةً بعد ما حدث بينهما ..

يعرف الآن أنها خرجت من بيته و حياته و هي ذليلة و مقهورة و دون أن يكون لها حق الاختيار لكنه لا يعرف كيف يستطيع أن يهدم الجدران الهائلة التي باتت تفصل بينهما الآن .. لا يعرف ماذا يستطيع أن يفعل ليعيد الماضي و يشفي جراحه الكثيرة التي لا تبرأ .

لا الزمن استطاع أن ينتزع حبها من قلبه و لا الظروف استطاعت أن تغير دفة عواطفه عنها لكنها

بعيدة كل البعد عن عالمه ولا سبيل للإهتداء إليها .. هل كان قدره هو أن يظل يتعذب لآخر عمره بفقدها ؟ .. أليس هناك و لو بصيص أمل في أن تعود شمسها لتضيء في ظلام حياته ؟ .. يتمنى لو يراها .. لو يراها و لو لمرة واحدة فحسب .. يتمنى أن يعتذر منها و أن تغفر له .. يتمنى المستحيل و يصدم رأسه بصخور قاسية لا ترحم و لا تلين .

دخل سعيد إلى الغرفة و هو يهتف في ضيق :

- إلى متى ستصر على أن تكون في وادٍ و نحن في وادٍ آخر ؟ .. لماذا تصر على أن تظل حبيساً في سجن الماضي وترفض أن تتحرر منه ؟ .. شابٌ مثلك لديه كل شيء ما الذي ينقصه ليعيش و يستمتع بحياته و بكل ما يملكه ؟ .. من له نصف موهبتك ومركزك وثروتك كان يجب أن يكون له زوجة من علية القوم و طابور من العشيقات و أنت تصر على أن تظل راهباً في محراب القديسة سماح و كأن من خلقها لم يخلق مثلها .. أنا حقاً لا أفهمك .. كيف لا ترى ما تملكه يدك ؛ هل أنت أعمى ؟

همس رؤوف في مرارة :

- كنت أعمى و تركتكم جميعاً تتلاعبون بي و تضعوني في طريق المسكينة حتى أحطمها .. و ربما لا زلت أعمى لأنني لا أستطيع أن أهتدي إليها وأخلصها و أخلص نفسي من هذا العذاب .. و ربما سأظل أعمى إلى الأبد و سيظل ذنبها في رقبتي و جرحها في قلبي إلى آخر العمر .

هتف سعيد في سخط :

- أنت بالفعل لا فائدة منك .. تلك الحقيرة طمست على قلبك وعينيك و ستضيع حياتك ومستقبلك .. أنت تعيش كالميت بسببها و ربما كان من الأفضل لك لو تموت فعلاً لترتاح و تريح من حولك .

لا يعلم سعيد كم كان قوله هذا يمس الحقيقة و ربما كان هو أصدق ما قاله في حياته ؛ فقد كان رؤوف بالفعل يعيش كالموتى و ربما كان الموت هو الراحة التي يتوق إليها لكنه لم يكن مستعداً للسير إليه على قدميه لا لشيء إلا لأنه يعلم أن سماح ربما لا زالت موجودة في مكانٍ ما في هذا العالم و قد يمنحه القدر ذات

يوم الفرصة ليعثر عليها و يفي بعهدٍ قطعه على نفسه ذات يوم و هو لا يريد أن يموت و يحنث بعهده .. خذلها في حياته بما فيه الكفاية و لا يريد أن يخذلها مرة ثانية بموته .. لا أحد يستطيع أن يفهم أنه يعيش و يتنفس من أجلها .. من أجل سماح فحسب ولولا الأمل في رحمة القدر الذي يستطيع أن يعيدها إليه ذات يوم لكان قد مات فعلاً منذ سنين .

كان رؤوف لا يزال مستلقياً في فراشه و هو يضع وسادة على رأسه حتى لا يسمع الموسيقى الصاخبة التي تهز أركان الفيلا ؛ كانت أمه تقيم حفلاً جديداً من حفلاتها التي لا تنتهي و لم يكن رؤوف يعلم أو يهتم بما هو سبب الحفل لكنه أزاح الوسادة عن رأسه و اعتدل جالساً عندما شعر باليد التي لمست كتفه في رقة و أسرع يضم هيثم إلى صدره و هو يهمس :

- وحشتني .

ارتمى هيثم في صدره وهو يهتف في لوم :

- لما لم تعد تسأل عني ؟ .. لم أرك منذ أيام وسأسافر مع أمي و أبي غداً و لن أراك .. ألا تريد أن تودعني ؟ .. ألم تعد تحبني ؟

ضم رؤوف الصبي إلى صدره بقوة و هو يهتف في حرارة :

- بل إنني لا أحب أحداً كما أحبك ؛ لو كان الأمر بيدي لمنعت هايدي من السفر بك لكن أمك و أبيك أولى بك مني .. لكنني سأذهب لزيارتك في أقرب فرصة .. ايرلندا بلد جميلة و لم أذهب لزيارتها من قبل و أنت ستكون مرشدي بها ؛ أليس كذلك ؟ .. تعرف الأماكن التي تستحق الزيارة هناك و سنذهب إليها معاً .. أنا أحبك كثيراً يا هيثم و أنت أيضاً تحب خالك ؛ أليس كذلك ؟

قبل هيثم وجه رؤوف و هتف :

- أحبك كثيراً يا خالي و لا أحب أن أراك وحيداً وتعيساً هكذا .. لما لم تخرج إلى الحفل ؟ .. ألا تريد أن تودع أمي كالباقين ؟ .. قد يمر وقت طويل قبل أن تراها مرة أخرى .

بتشجيعٍ من هيثم غادر رؤوف الفراش ؛ حلق ذقنه و اغتسل و ارتدى بذلة سهرة قبل أن يغادر الاستراحة مع هيثم الذي أمرته جدته بالذهاب إلى غرفته لينام بينما نظرت إلى رؤوف وهتفت في غضب :

- هل هيثم هو الذي استطاع إخراجك من كهفك ؟ .. جيد .. ربما كان من الأفضل لو تركت الإخراج لتعمل كجليسة أطفال فأنت تبدو ماهراً معهم .. من الواضح أنك تحب رفقة الفئات الدنيا في السن و المكانة .. ياللقرف !!

ابتعد رؤوف عن طريق أمه ؛ لم يكن يحب الاحتكاك بها خاصةً بعد أن علم بالدور الحقير الذي لعبته لتفرق بينه و بين سماح .. لا يستطيع أن يسامحها على ما فعلته به و لا على ما فعلته بالمسكينة التي لا يعلم كيف تعيش وكم تعاني منذ خرجت من حياته .

فكر رؤوف في الخروج من الفيلا فقد كان يشعر بالاختناق و لم يرغب في البقاء بها أكثر من هذا و بالفعل كان ذاهباً إلى سيارته عندما وقفت أمامه رنا و هي تهتف مبتسمة :

- بهذه السرعة ؟ .. حتى أنك لم ترحب بضيوفك بعد ؟

هتف رؤوف في أسى :

- أنا نفسي هنا مجرد ضيف .. و أغلب الظن هو أنني ضيف لم يعد مرغوباً فيه و من الأفضل أن أنصرف قبل أن أخرج مطروداً شر طردة .

هتفت رنا في دلال :

- في هذه الحالة هل لديك مانع في أن نقضِ سهرتنا في مكانٍ آخر ؟ .. لأنني لم تتسنى لي الفرصة بعد لأشكرك على الفرصة العظيمة التي منحتها لي كما أنني لم أحتفل بعد بالجائزة التي حصلت عليها .. أرجأت الاحتفال بها لأنني لم أكن مستعدة للاحتفال بدونك ؛ فما رأيك ؟ .. هل نذهب الآن ؟

حاول رؤوف الاعتذار منها لكنها أصرت ؛ قاد سيارته بها إلى الملهى الليلي بأحد الفنادق الضخمة و الذي قد اختارته هي بنفسها .. على مضض وافق رؤوف على أن يرقص

معها و تناولا العشاء معاً قبل أن يعيدها رؤوف بسيارته إلى بيتها ثم يعود إلى شقته .

في اليوم التالي ذهب رؤوف إلى الشركة ؛ كان قد ابتعد عنها لبضعة أيام لذا كان هناك الكثير من الأوراق في انتظاره لتوقيعها ثم أتت رنا لزيارته على غير موعد .

قابلها رؤوف في فتور فقد شعر فجأة بأنها تحاول أن تقلص المسافة بينهما و لم يكن هذا يروق له .. رنا بالفعل فتاة جميلة وموهوبة لكنه لا مكان في حياته لأية فتاة على الإطلاق حتى لو كانت تتصرف وكأنها مغرمة به لذا قرر رؤوف أن يكون صريحاً معها .

كانت رنا تحمل صحيفة فنية معروفة في يدها وعلى الغلاف صورة لهما معاً وهما يرقصان في ذلك الملهى ؛ استغرب رؤوف كثيراً من أن الصورة تم نشرها بهذه السرعة كما تم تداولها بسرعة على مواقع التواصل الاجتماعي مع تعليقات عديدة عن قصة حب تلوح في الأفق و مشروع زيجة فنية جديدة .

هتفت رنا في خجل :

- لا أدري من أين راودتهم تلك الفكرة فنحن مجرد أصدقاء فحسب يا رؤوف ؛ أليس كذلك ؟

صمت رؤوف مفكراً للحظة قبل أن يهتف في حزم :

- و لا حتى أصدقاء يا رنا .. نحن مجرد زميلا عمل فحسب و الفيلم الذي جمع بيننا قد انتهى و الفيلم الجديد الذي سأشرع به ليس به دوراً مناسباً لكِ .. لذا أظن أن زيارتك للشركة لن تكون موضع ترحيب بعد الآن ما لم يكن هناك عمل مشترك بيننا في المستقبل .

احتقن وجه رنا بشدة ؛ وغادرت الشركة و هي تجر ذيول غضبها خلفها ؛ لم تكن تتوقع أن يعاملها رؤوف بهذه اللامبالاة في الوقت الذي أيقنت فيه من أنها قد وضعت قدمها بالفعل في حياته و كان هذا يشعرها بالسخط ..

لا زالت هناك مشاريع عمل كثيرة من الممكن أن تربط بينها و بين رؤوف سواء كان هذا

برغبته أم بدونها فهي تعرف هدفها جيداً و ليست مستعدة للاستسلام و التنازل عنه بهذه البساطة .

الفصل الثالث عشر

كان رؤوف حازماً في طرد رنا من حياته لكن تلك الصورة لهما معاً ظلت مصدر إزعاجٍ كبير بالنسبة له فقد أثارت حفيظة والده و غضب أمه و سخط سعيد كالعادة ؛ و على الرغم من أن رؤوف قد أنكر وجود أية علاقة عاطفية بينه و بين رنا لكن والديه لم يرغبا في تصديقه حتى أن سعيد ذهب لزيارته في الشركة ليتحدث معه في هذا الموضوع بالذات فهتف رؤوف في حدة :

- أنا لا أفهم لماذا تصرون جميعاً على أن تصنعوا زوبعة من لا شيء ؟ .. إنها مجرد صورة عادية جداً .. جميعكم تعلمون أنه لا مكان في حياتي لأية امرأة سوى سماح ؛ فلماذا تقيمون الدنيا وتقعدونها بلا سبب ؟

هتف سعيد في حزم :

- ليست لديّ مشكلة في أن تكون بينك و بين رنا هذه علاقة عاطفية ؛ هي شابة جميلة جداً و أنت رجل في عنفوان شبابك و لست مرتبطاً بزوجة .. كل ما في الأمر هو أنني أريد تحذيرك من تلك الفتاة فهي طموحة جداً و زواجها من رجل في مركزك خطوة في

طريق تحقيق أحلامها هي لن تتنازل عنها بسهولة و لا أريدك أن تتورط معها .

هتف رؤوف في توتر :

- لن أتورط معها و لا مع غيرها .. فكرة الارتباط أساساً لا محل لها من الإعراب في حياتي .. تعرف أنني مرتبط .. كلكم تعرفون هذا لكنكم تتجاهلون الحقيقة .. و ربما لديكم حق .. أنا المسئول عن هذا الإلتباس .. يجب أن أضع النقاط فوق الحروف حتى لا يكون هناك مجال أمام رنا أو غيرها لأن تحوم حولي .

هتف سعيد في قلق :

- ما الذي ستفعله بالضبط ؟

تجاهل رؤوف سؤال أخيه و لم يمنحه إجابة شافية ؛ و في المساء وجد الجميع على صفحة رؤوف على اليوتيوب فيديو له وهو يتحدث عن الصورة التي تم تداولها على المواقع هاتفاً :

- رنا فنانة جميلة و موهوبة و أنا أتوقع لها مستقبل رائع و أكن لها كل احترام كزميلة

عمل و موهبة لها وزنها .. لكن للتوضيح و حتى لا يسيء أحدكم الفهم ليست هناك علاقة عاطفية بيني و بين رنا .. و بالأحرى ليست في حياتي أية علاقة عاطفية سوى ارتباط قديم و مقدس بفتاة أتمنى لو كانت تسمعني الآن .. هي الوحيدة التي تملأ قلبي و وجداني .. و عندما تكون هناك امرأة تحمل اسمي فلن تكون سواها .. أتمنى لو كانت تصدقني و مستعدة لأن تتجاوز كل العقبات التي وقفت بيننا في الماضي لأنني مستعد لأن أحارب العالم بأسره لو كانت معي و لا أبغي من الدنيا سواها .

شاهد الجميع الفيديو .. حتى رنا .. و كانت لدى الجميع ردود أفعال لم تكن متوقعة .. لكن كان من الواضح أن رؤوف لم يكن يبالي برأي الجميع أو شعورهم نحو ما قال .. مكث في شقته عاكفاً على وضع السيناريو الجديد متجاهلاً الرنين المتواصل لهاتفه حتى أنه تجاهل التعليقات التي أثيرت حول الفيديو و تساؤلات الناس عن الفتاة التي تحدث عنها و متى عرفها و كيف ضاعت منه و لما لا يزال متعلقاً بها ؟

عندما رن جرس الباب تجاهل رؤوف الرنين للوهلة الأولى لكنه استمر بشكل متواصل مما جعله يترك غرفة مكتبه و يخرج إلى الردهة و يفتح الباب ثم زفر في حرارة عندما وجد سعيد و عماد أمامه و كلاهما يبدو في حالة سكر .. رحب بهما رؤوف في فتور قبل أن يغلق الباب خلفهما و سعيد يهتف :

- لا تغلقه بل تعالى معنا .. اليوم عيد مولدك وأنا مصر على الاحتفال به .

هتف رؤوف في استنكار :

- و منذ متى و نحن نحتفل بعيد مولدي ؟ .. كلاكما سكران كما أرى و من الواضح أنكما قد بدأتما الاحتفال قبل وقتٍ طويل و لم يتوقف الأمر على وجودي و الأفضل أن تعودا إلى نفس الماخور و تكملا احتفالكما هناك .

هتف عماد ضاحكاً :

- ليس بدونك .. هذه ليلتك ونحن نصر على إحيائها معك .. ثم إن هذا ليس كأي عيد ميلاد آخر يا رجل .. بلغت الثلاثين و هذا أمر لا يحدث كل عام .. هيا .. لا تضيع الوقت .

كان سعيد و عماد في حالة من غياب الرشد حتى أنهما كانا يضحكان في صخب و يرفعان صوتهما بطريقة أربكت رؤوف و جعلته يشعر بالحرج من جيرانه حتى أنه أخرجهما من شقته و نزل معهما إلى الجراج حيث أصر على أن يركبا في سيارته و أن يقودها بنفسه حرصاً على حياتهم فأصرا على اختيار المكان الذي سيذهبون إليه .

استغرب رؤوف كثيراً عندما أصرا على الذهاب إلى ذلك الملهى الذي تناول فيه العشاء تلك الليلة مع رنا و زاد استغرابه عندما وجدها في انتظارهم هناك و كان هذا جلياً في عينيه فهتفت رنا :

- أردت الاحتفال بعيد مولدك ؛ فهل هذا كثير ؟ .. أعرف أنك لا تحبني يا رؤوف فقد أعلنت هذا للعالم أجمع لكنني لا أستطيع أن أبتعد عنك بهذه السهولة .. امنحني فرصة قضاء بعض الوقت معك .. أرجوك يا رؤوف .. و لو لهذه الليلة فحسب .. أرجوك .

جلس رؤوف على مضض .. رفض تناول الخمور هاتفاً في لهجة قاطعة :

- لا .. ارتكبت هذا الإثم لمرة واحدة في حياتي و من الواضح أنني سأتعذب به لآخر عمري و لست مستعداً لتكرار الغلطة مرتين .. سأكتفي بكوب من القهوة و بعدها سأعود لمنزلي .. تعلمون جميعاً أنني لست من هواة السهر في هذه الأماكن .

توسلت إليه رنا ليشاركها رقصة واحدة فحسب لكنه رفض بشدة ؛ تناول قدح القهوة برشفة واحدة ثم نهض مغادراً الملهى .. لكن عندما نهضت رنا و طلبت منه توصيلها لمنزله وقف متردداً لكنه حسم تردده عندما هتفت :

- لن تحب أن أعود إلى البيت وحدي في ساعة كهذه كما أنك لن تتركني معهما وحدي .. كلاهما فاقد الرشد ولا يؤتمن .. في الحقيقة .. أنا لا أثق في أي رجل في هذا العالم سواك .

كان رؤوف مشوشاً و لا يدري لما أصبح فجأة و كأنه على وشك أن يفقد رشده مثلهم مع أنه لم يذق و لا قطرة خمر واحدة ؛ تعلقت رنا بذراعه و غادر الملهى معها و هو يترنح ثم أحاط بعقله ضباب كثيف لم ينقشع حتى

الصباح التالي عندما استعاد رؤوف وعيه فجأة و وجد نفسه مستلقياً في فراشه و كل أحداث الليلة الماضية مطموسة في ذهنه و كأنها لم تكن .

كان رؤوف يشعر بألم شديد في رأسه ؛ يكره الأيام التي تبدأ بوجع الرأس لأن الصداع يظل يوتره لوقتٍ طويل لكنه أزاح الأغطية عن جسده العاري و ذهب إلى دورة المياه حيث وقف طويلاً تحت الصنبور على أمل أن يعيد إليه الماء الدافئ صفاء ذهنه و يخلصه من هذا الألم .

غادر رؤوف دورة المياه وهو يضع على جسده مئزراً ؛ فتح الصوان ليخرج ثيابه منه استعداداً للذهاب إلى الشركة عندما نما إلى مسامعه صوت تنهيدة .. تنهيدة حارة بصوت نسائي مألوف كانت تنبعث من فراشه تلاها همس رنا باسمه وهي تستفيق من نومها ..

التفت رؤوف إلى الفراش الذي خلف ظهره و انتفض بشدة و هو يحدق في الفراش في

ذهول حيث كانت رنا تتثاءب و هي تعتدل جالسة في الفراش و هي تهتف باسمة :

- صباح الخير يا حبيبي .. كم الساعة الآن ؟

خرج صوت رؤوف متحشرجاً من فمه و هو يهمس :

- ماذا تفعلين هنا ؟

غادرت رنا الفراش و اقتربت منه ؛ تعلقت برقبته و هي تهتف مبتسمة :

- أشاركك فراشك و حياتك كلها يا زوجي العزيز و لا تقل أنك قد نسيت أننا قد عقدنا قراننا ليلة أمس و قضينا أسعد ليلة في حياتنا معاً .

أمسك رؤوف ذراعيها و سحبهما بعيداً عن رقبته برفق و هو يهتف :

- هذه مزحة قاسية ؛ أليس كذلك ؟ .. أنا لا أستطيع أن أرَ أبعاد اللعبة التي تلعبينها معي لكنك ترتكبين حماقة كبيرة بالاستمرار بها صدقيني .. أنا لم أتزوجك يا رنا و من المستحيل أن أفعل .. أنا لم ألمسك من الأساس و لا أدري ما الذي تتحدثين عنه .

مطت رنا شفتيها و هي تهتف في ضيق :

- كنت أعلم أنك سكران لكنني لم أتخيل أنك كنت سكراناً لهذا الحد .. على كل حال يا رؤوف سأعطيك اسم المأذون و عنوانه حتى تذهب إليه لتتأكد بنفسك .. و عندما تستلم نسختك من عقد الزواج سترى بعينيك أنه ممهور بتوقيعك .. كما أن سعيد و عماد قد شهدا عليه لذا لن يمكنك إنكاره .

الفصل الرابع عشر

ارتدى رؤوف ثيابه و هو يغلي غضباً ؛ لم يكن واثقاً من حرفٍ واحد مما نطقت به رنا لكن ثقتها الشديدة و إصرارها على نفس القصة جعله يدرك أنه قد سقط في الفخ كالأعمى .

جلست رنا على طرف الفراش و وضعت سيقانها العارية الطويلة الواحدة فوق الأخرى و هي تتأمل رؤوف في برود و صمت قبل أن تهتف فجأة :

- لماذا تتصرف و كأن كارثةً قد وقعت على رأسك ؟ .. هل زواجك مني مصيبة كبيرة لهذا الحد يا ابن معالي الوزير ؟

التفت رؤوف نحوها و هتف في حدة :

- لا تخلطي الأوراق ببعضها يا رنا .. تعلمين جيداً أنني لم أصدك بسبب الفوارق الاجتماعية أو المالية بيننا .. أنا لا أحبك يا رنا و لا مكان لكِ في حياتي و إذا تأكدت من أنني قد تزوجتك فعلاً كما تدعين فهذه غلطة لا يفوت أوان تصحيحها أبداً ..

تزوجتك بدون وعي و أستطيع تطليقك و أنا في كامل قوايا العقلية و لا تظني أنني قد أقبل بلعبتك الحقيرة أو بالأمر الواقع الذي تحاولين فرضه عليّ .

احتقن وجه رنا بشدة قبل أن تنهض فجأة و تقترب منه و الدموع تلمع في عيونها .. كانت تنظر إليه في ألم و هي تهمس :

- لهذا الحد ؟ .. لماذا يا رؤوف ؟ .. أنا أحبك .. كل غلطتي هي أنني أحبك .. لماذا ترفض حبي و تتخلى عني ؟ .. لماذا تتخلى عن كل السعادة التي نستطيع أن نحظَ بها معاً ؟ .. أنا ....

ضحك رؤوف فجأة قبل أن يهتف في سخرية :

- رنا .. عزيزتي .. هذا الدور لا يليق بكِ و لا تتخيلي أنني أحمق لدرجة تصديقك .. أنتِ ممثلة موهوبة جداً لكنكِ لا تستطيعين خداعي .. و لو كنت أنا من كتب هذا المشهد لما أسندت إليكِ تمثيله فأنتِ متنمرة بطبيعتك و الخنوع لا يليق بكِ .. جربي شيئاً آخر .. لما لا تصارحيني بالحقيقة ؟ .. هناك مؤامرة

يخطط لها سعيد و ساعدتيه مع عماد في تنفيذها ؛ أليس كذلك ؟ .. سعيد شقيقي الوحيد و أعرف ما هو قادر على فعله و قد نصب لي فخاً من قبل و حطم به حياتي كلها لكنني لا أستطيع أن أرَ ما الذي يرمي إليه الآن .. لما لا تكوني صريحة معي و تعترفي بما تخفينه ؟ .. لأنني لا أحب أن أظل أعمى .

تنهدت رنا و همست :

- من الواضح أنك لا تريد تصديقي .. الحقيقة الوحيدة التي أعرفها يا رؤوف هي حبي لك و من الواضح أن كل هذا الحب لا قيمة له لديك .. خسارة .. خسارة كبيرة .. أنت لا تعرف قيمة ما تملكه و تزهده و تستعد للتخلص منه بهذه البساطة لكنك ستدرك هذا ذات يوم و ستندم كثيراً على أنك كنت أعمى و لم تراني .

انهمرت دمعة على أهدابها قبل أن ترتدي ثيابها و تغادر الشقة في صمت .. زفر رؤوف في حرارة و أشعل سيجارة و نفث دخانها في توتر و هو يفكر في أن أدائها عبقري و يستحق التصفيق لكنها لم تستطع أن

تلمس قلبه .. يعرف أنها مجرد أفاقة تحاول استغلاله لتضمن لنفسها زوج ثري و مستقبل مضمون و شركة إنتاج تعزز نجاحها بسيلٍ من الأعمال لن ينقطع لكنه لا يعرف لما يجاريها سعيد في هذا كله و هو الذي كان يحرضه طوال الوقت على الزواج من أية فتاة بشرط أن تتمتع بمركز اجتماعي يليق بمركز العائلة و ثروتها .

كان رؤوف غارقاً في التفكير في موقف سعيد الغريب عندما رن جرس الباب بإلحاحٍ شديد .. أسرع رؤوف يفتح الباب ثم عقد حاجبيه في ضيق عندما وجد رنا واقفة أمامه و هي شاحبة الوجه و تبدو و كأنها في حالة مروعة .. قبل أن يسألها كانت تدخل إلى الشقة بسرعة و هي تهتف في هلع :

- لم أستطع مغادرة المكان فالطريق مغلق .. كل الطرق مغلقة .. هناك مظاهرات عارمة في ميدان التحرير و الناس يتهامسون على أن ما حدث في تونس منذ أيام سيتكرر هنا حتى يتم إسقاط النظام .

كان رؤوف قد قرأ دعوات التظاهر على بعض صفحات التواصل الاجتماعي لكنه شعر في أن في ذعر رنا بعض المبالغة فالمسألة لا يمكن أن تكون بهذه الصورة لذا أسرع نحو التلفاز ليدير القنوات الواحدة تلو الأخرى ليعرف الأخبار .

كانت القنوات الفضائية المصرية تذيع فيديوهات لميدان التحرير و الميادين الرئيسية في معظم المحافظات تظهر وجود تجمعات شبابية صغيرة بينما السيولة المرورية في الميادين لا بأس بها و إن كانت منخفضة بعض الشيء .

هتفت رنا في توتر :

- هذا كذب و تضليل يا رؤوف صدقني .. ميدان التحرير مغلق بالفعل و كل الطرق المؤدية إليه مغلقة و لا توجد مواصلات .. لا أعرف كيف أذهب إلى شقتي في بولاق و أنا حتى ليس معي سيارة كما أنني أعيش وحدي و أخشى أن تزداد الأمور سوءاً .. أنا لا زلت زوجتك يا رؤوف و أنت لم تطلقني بعد فهل

ستتركني وحدي في هذه الظروف ؟ .. أرجوك اسمح لي بالبقاء هنا .

تأمل رؤوف البث المباشر على قناة الجزيرة و قطب جبينه ؛ كانت الحشود التي ترفع لافتات المناداة بالحرية و المساواة و العدالة الاجتماعية توحي بأن المسألة لن تنتهِ خلال ساعات بل إنها قد تتزايد لدرجة لا يعلمها إلا الله و هو لن يخاطر بأن يظل مع رنا بين أربعة جدران و هو يعلم أنها لن تتوانى عن استغلال الفرصة لذا كان عليه طردها فوراً أو ....

التفت رؤوف نحو رنا و هتف في حزم :

- سنذهب إلى فيلا والدي .. سأحاول المرور من طرقات بعيدة عن ازدحام المتظاهرين و يمكنك البقاء في غرفتي القديمة حتى نرى ما ستنتهي عليه هذه الأحداث و لكن عليكِ أن تفهمي جيداً أن مسألة طلاقنا ليست خاضعة للنقاش أو المساومة و سنحسمها بمجرد أن تستقر الأمور .. و إياكِ أن تقتربي من الاستراحة .. هل هذا واضح ؟

ظهرت نظرة سخط في عيون رنا لم تستطع اخفاؤها لكنها ظلت صامتة و لم تهمس بحرفٍ واحد حتى حزم رؤوف حقيبة ثيابه و ذهب معها إلى الفيلا .

كان رؤوف يتوقع ثورة والديه عندما يفاجئهما بخبر زواجه من رنا لكن الأمر لم يكن بالحدة التي يتخيلها فقد كانت المظاهرات و سبل اخمادها و ما قد تنتهي إليه الأمور هي الشغل الشاغل في الفيلا و من فيها .

لم يمنع هذا شاهندة من أن تهتف في ثورة :

- لا فائدة منك .. بعد كل ما فعلته لأنقذك من نفسك فعلت ما في رأسك و لطخت اسم العائلة الذي تحمله و لا تستحقه .. ليتك مت قبل أن تمنح هذه الحثالة شرف أن تصبح واحدة منا .. ليتك ....

قاطعها رشدي هاتفاً :

- كفى يا شاهيندا و دعكِ منه الآن .. مصيبة ابنك مقدورٌ عليها و يمكن أن نداويها لكن الكارثة التي على الأبواب قد تطيح بكل شيء و تهدم كل ما بنيناه .. الكلاب المسعورة التي

تنبح في التحرير تطالب برؤوسنا جميعاً و توقعي خلال فترة وجيزة جداً إقالة الحكومة و حل البرلمان .. يجب علينا ترتيب أوراقنا بسرعة لنرى ما سنفعله في الأيام القادمة لنواجه هذا الطوفان .

انسحب رؤوف إلى الاستراحة بينما استقرت رنا في غرفته القديمة ؛ كان رؤوف يفكر في أن الأجواء السياسية قد خففت أثر صدمة والديه في الزيجة التي لا تناسب كبرياءهما لكن هذا لا يمنع من أنه سيواجه مشكلة معهما بعد أن تستقر الأوضاع و حتى طلاقه من رنا في ذلك الوقت لن يغير حقيقة أنه قد تزوجها فعلاً .. الأمر الذي يحاول أن يفهم كيف حدث لكن ذهنه كالصفحة البيضاء و لم يتذكر شيئاً .

فكر رؤوف في أن قطع الانترنت و وسائل الاتصال لعبا دوراً كبيراً في إخماد الفضيحة التي كان من الممكن أن يتعرض لها بمجرد أن ينتشر خبر زواجه من نفس الفتاة التي أعلن أنه لا علاقة بينهما على الإطلاق سوى علاقة العمل .

للحظة فكر رؤوف في سماح .. هل لا زالت تتذكره ؟ .. هل تتتبع أخباره ؟ .. هل رأت تلك الصورة في المجلة و سمعت أشاعات علاقته مع رنا ؟ .. هل تصدق أن هناك فتاة في هذا الكون من الممكن أن تحتل قلبه سواها ؟ .. لا .. مستحيل .

لا ينكر رؤوف أنه عندما نشر ذلك الفيديو و تحدث عن حبه القديم و الفتاة التي تملك عليه كل وجدانه كان يتمنى أن تسمعه و أن تصدقه و أن تتصل به .. هو لا يستطيع أن يجدها في هذا العالم الواسع لكن ربما هي تستطيع أن تقطع المسافات الطويلة التي باتت تفصل بينهما و تحاول الاقتراب منه .. لعلها تفعل هذا فعلاً و لكن .. هل يمكن بالفعل أن تنهدم السدود و الجدران و الفواصل بين قلبين شتتت جمعهما الظروف و باعدت بينهما السنوات الطويلة ؟ .. هل ؟

الفصل الخامس عشر

على مدى عدة أيام ظل رؤوف في الاستراحة و هو يتابع على شاشة الجزيرة مباشر مصر أحداث المظاهرات التي ازدادت حدتها بعد أن سقط عشرات الضحايا قتلى و جرحي و سالت دماؤهم الطاهرة على أرصفة الشوارع في كثير من المحافظات .

تمت إقالة الحكومة و حل البرلمان كما توقع رشدي ؛ لكن هذا لم يغير من الوضع الجاري خاصةً بعد أن ارتفع سقف المطالبات إلى إسقاط الرئيس و تشكيل حكومة انتقالية تشرف على إجراء انتخابات رئاسية نزيهة .

لم يكن رؤوف يرغب في مغادرة الاستراحة حتى لا يصطدم بوالديه فقد كان يعلم الحالة المريعة التي يمران بها و لم يكن يرغب في أن يكون هدفاً لثورتهما التي لن يمكن وصفها و هما في هذه الحالة لكن أحد الخدم أخبره بأن سعيد موجود و أن سائق سيارة رشدي قد نقل حقائب الثياب من سيارة سعيد إلى السيارة الكبيرة حتى يقله إلى المطار لذا دخل رؤوف

إلى الفيلا ليرَ أخيه قبل سفره و ليسأله عما يفعله عله يفهم شيئاً مما يدور حوله .

لم يجد رؤوف أحداً في ردهة الفيلا و قد كان هذا متوقعاً لأنه يعلم جيداً أن والديه معتكفان في غرفتهما و لا يغادرانها منذ خسرا المركز السياسي الذي كان يكمل صورة العائلة بهالة زائفة من الكبرياء و الأهمية لم يكن رؤوف يبتلعها أو يعرف كيف يتقبلها و يتعامل معها .

توقع رؤوف أن يجد سعيد في غرفة المكتب حيث الخزينة السرية التي يحتفظ فيها رشدي بكشوف أرقام الحسابات السرية الكثيرة التي يملكها في مصارف أوروبا و مستندات الشركات المتعددة الجنسيات التي يستثمر فيها جزءاً كبيراً من ثروته و لكن ما لم يكن يتوقعه رؤوف هو أن تكون رنا أيضاً موجودة هناك و لا الحديث الدائر بينهما و الذي نما إلى أذنيه و هو يقف مذهولاً خلف باب المكتب .

كانت رنا تهتف في توسل :

- لا تفعل هذا بي يا سعيد أرجوك .. لا تسافر بدوني .. أنا نفذت كل ما طلبته مني رغم أنك تعرف أنك الرجل الوحيد الذي أرغبه و أريده .. فعلت كل شيء لأجلك و لا يمكنك أن تتركني الآن .

هتف سعيد في حدة :

- هل فقدتِ عقلك ؟ .. سفرك معي الآن شيء من عداد المستحيلات ؛ زوجتي ستسافر معي و إذا كان من الممكن أن نخفي علاقتنا عنها هنا فلن يكون هذا ممكناً هناك ثم .. هل نسيتِ أنكِ زوجة الآن ؟ .. زوجة لأخي الوحيد .. عودي لعقلك يا رنا و لا تتهوري .

هتفت رنا في ثورة :

- أنت لم تترك لي عقلاً لتحدثني عن العقل .. أنا لن أسمح لك بأن تتخلَ عني بعد كل ما فعلته لأجلك .. مستعدة لفعل أي شيء يا سعيد .. سأنسف لك مخططاتك كلها و ....

قاطعها سعيد هاتفاً في سخط :

- هل أنتِ عمياء ؟ .. كل شيء تم نسفه بالفعل .. زواجك من رؤوف لم يحرك شعرة في رأس أبي بسبب الظروف التي لم تكن في الحسبان .. أبي .. رشدي الصياد .. الرجل الذي عشت في ظله طوال حياتي و سمحت له بأن يحركني كقطعة شطرنج في يده .. قبلت الدراسة التي يريدها و الزوجة التي اختارها و في النهاية جعلني مجرد موظف تحت يده يتقاضى أجره في آخر كل شهر بينما منح رؤوف الذي عصاه طوال حياته و تمرد على حكمه شركة بملايين الجنيهات .. أنا وضعتك في طريق رؤوف لكنكِ فشلتِ مرة بعد مرة حتى بعد أن ساعدك عماد و وضع قدمك في حياته .. لا تقولي أنكِ قد فعلتِ شيئاً لأجلي لأنني أنا الذي فعلت كل شيء و بدوني لما كنتِ النجمة المعروفة و لا كان زواجك من رؤوف أصلاً .. الأحمق الذي فقد وعيه من مجرد قدح قهوة به القليل من المخدرات هو الذي يمكن أن يحقق لكِ كل أحلامك الآن لو أنكِ أمسكتِ بلجام الفرصة التي منحتك إياها على طبق من فضة و أجدتِ امتطاؤها .

فتح رؤوف باب الغرفة فشهقت رنا في فزع بينما شحب وجه سعيد حتى صار كالموتى ؛ نظر لهما رؤوف للحظة في مرارة قبل أن يهتف :

- أنتِ طالق .

عاد رؤوف إلى الاستراحة و حمل حقيبة ثيابه في سيارته و غادر الفيلا ؛ ظل يقود سيارته حتى وصل إلى ذلك الفندق في مطروح و هو يظل يردد في عقله سؤالاً واحداً لا يجد له إجابة .. كيف يستطيع أن يرَ ما تحويه القلوب و تكنه الضمائر و هو يشعر بأنه لا يزال أعمى يتحسس طريقه في غابة لا ترحم ؟

قضى رؤوف ليلة مضنية و هو يتقلب في فراشه و عقله تعصف به أفكار لا تهدأ ثورتها و عندما انبلج الصباح دخل إلى دورة المياه و وقف طويلاً تحت الماء الساخن قبل أن يرتدي ثيابه و يهم بمغادرة الغرفة التي دخلت إليها إحدى العاملات بالفندق لتنظيفها .

لا يستطيع رؤوف أن يفهم كيف انتفض قلبه بهذه القوة بمجرد أن وقع نظره على الشابة

ضئيلة الجسد التي لا تسير مستوية لأن قدمها المكسورة و التي لم يلتئم كسرها كما ينبغي تعوق حركتها و تجعلها تسير بصعوبة .

يعرف رؤوف أنه لم يرَ هذه الشابة و لا لمرة واحدة في حياته كما يعرف أنها حياته كلها .. و لا يدري كيف كان واثقاً لهذا الحد من أنها هي حلم عمره الذي طال انتظاره له لكنه كان واثقاً من أنه حتى لو لم يكن اسمها مطبوعاً على زي العمل الذي كانت تقوم به كانت الرعشة التي سرت في أوصاله كلها ستجعله يعرف أنها هي .. أخيراً هي .

ظل رؤوف يحدق في الفتاة التي أخذت تغير شراشف الفراش دون أن تنظر إليه و لا للحظة واحدة و كأنها لا تلاحظ أن الغرفة ليست خالية حتى رفعت الفتاة رأسها بعد أن انتهت مما تفعل و التقت عيونها بالعيون التي تضمها في شوقٍ و لهفة و قد اغرورقت بالدموع .

للحظة .. فقط للحظة .. بدا لهما أن الزمن الذي باعد بينهما وفرقهما في مشارق الأرض

و مغاربها قد توقف فجأة لينظر لهما بعين الرأفة .. بدا و كأن السنين التي حالت بينهما قد انسحبت مهزومة أمام عاطفةٍ حارة و جياشة حتى الزمن لم يستطع أن يطفئ حرارتها أو يطمس معالمها .. شعر كلاهما بشوق الفراق الطويل يزأر في جوفهما و كأنه وحش مزق وثاقه أخيراً و اندفع يحرر نفسه من كل القيود .

لا يفهم رؤوف كيف ظل يحدق بها و كأن عيونه الغرقى في دموع الشوق تريد أن تحفر صورتها على جدران قلبه و في ثنايا عقله كالوشم .. الصورة التي عاش لسنواتٍ طويلة وهو يحاول أن يرسم معالمها في مخيلته دون جدوى و كأنه يبسط كفيه إلى الشمس ليملكها فلا يملأ قبضته منها سوى السراب .

كانت سماح تحدق في عينيه ؛ و ترتعش من حرارة الشوق فيهما و هي تشعر بأن شبحاً قد قفز فوق كل سنوات العذاب ليضعها وجهاً لوجه أمام كل ما قاسته ؛ و كل ما خسرته ؛ وكل ما سيظل قلبها يحترق بناره إلى آخر العمر .

لا يصدق رؤوف أنه ظل يحدق فيها و هي تندفع مغادرةً الغرفة دون أن يمد يديه ليجذبها إلى صدره و يسحقها بين ضلوعه و يطفئ شوق السنوات الطويلة التي احترق فيها بنار الجوى و هو عاجز عن تحقيق أحلامه و استعادة الأمل الوحيد الذي كان يعيش من أجل تحقيقه ..

سماح هنا .. أمام عينيه .. و يستطيع أن يحارب ليحررها من أغلال الذل و المهانة التي عاشت سجينةً فيها لسنوات طويلة كان يظنها لن تنته لكنها أخيراً أعادت إليه الحلم الذي عاش به و لأجله حتى الآن .

انتفض رؤوف في عنف و هو يفيق من فيض العواطف التي تزأر في صدره و اندفع يغادر الغرفة و هو يبحث عنها في كل المكان كالمجنون .. سماح هنا .. حتماً هنا .. هو لا يهذي و لا يختلق و ما رأته عيناه و اهتز له قلبه و كل كيانه لم يكن حلماً أو شبحاً و يمكنه العثور عليه إذا حاول السيطرة على انفعاله و استعاد تفكيره بعض الهدوء و الكثير من المنطقية .

الفصل السادس عشر

اتجه رؤوف إلى موظف الاستقبال ؛ وهو يفكر في أنها تعمل في الفندق و من الطبيعي أن يعرفها كل العاملين به و سيدله أحدهم أين يجدها بالتحديد .. هتف رؤوف في لهفة :

- الفتاة التي تعمل في خدمة الغرف .. سماح جابر صديق .. أين هي ؟

هل كان السؤال غريباً أم هي الطريقة التي ألقاه بها هي التي كانت في منتهى الغرابة ؟ .. هذا ما جال في ذهن رؤوف و هو يرى نظرة استغراب في عيني الموظف الذي هتف في قلق :

- سماح الخرساء .. لماذا تسأل عنها ؟ .. هل هناك مشكلة في خدمة غرفتك ؟ .. يمكنك الإبلاغ عن أي تقصير و سنتداركه فوراً ...

لم يكن رؤوف يسمع ثرثرة الموظف التي لا تنتهي فقد توقف عقله عند كلمة واحدة .. الخرساء .. سماح ليست خرساء بل على العكس .. هي أكثر شخص عرفه في هذا

العالم يعرف كيف يتكلم بدقة و إيجاز و حكمة .. حكمة كانت تفوق عمرها في كثير من الأحيان .. متى أصبحت خرساء ؟ .. و كيف ؟ .. و لما ؟ .. هتف رؤوف في توتر :

- لا أريد أن أشتكي و ليس هناك ما أشكو منه .. أريدها هي .. أريد أن أتحدث معها لو سمحت .. أيمكنك أن تدلني أين هي ؟

هذه المرة منحه الموظف أكثر قليلاً من مجرد نظرة استغراب .. منحه نظرة فضول و قلق و شك .. قبل أن يهتف في توجس :

- العاملات هنا لا يتكلمن مع الزبائن ما لم تقتضي ظروف العمل هذا ثم إن سماح خرساء كما قلت لك و هي بالذات لا تتكلم مع أحد .

كان رؤوف متوتراً و قد ملأ قلبه الخوف من أن يفقد سماح بعد أن عثر عليها أخيراً ؛ كما كان حانقاً من أن يكون على بعد خطوات منها و لا يستطيع أن يهتدِ إليها .. كانت بعيدة كنجوم السماء ثم باتت بين ذراعيه فجأة فكيف

يتركها تضيع منه بهذه السرعة و البساطة ؟ .. مستحيل .. لن يسمح بحدوث هذا أبداً .

كان رؤوف قد بدأ يفقد أعصابه بالفعل حتى أن حديثه مع الموظف قد خرج عن مداه و كاد أن يتحول إلى مشاجرة عندما انبعث صوت امرأة تهتف في حزم :

- كفى .. يمكنك أن تتحدث معي أنا لو أردت .. سماح تحت وصايتي و أنا المسئولة عنها و إذا لم تكن مستعداً لمكاشفتي بما تخفيه فيمكنك أن تحزم حقائبك و تغادر الفندق من الآن .

التفت رؤوف إلى المرأة .. سيدة مسنة قد تتجاوز الخامسة و السبعين من العمر لكنها موفورة الصحة و شديدة الأناقة و حادة النظرات .. كانت تتأمل رؤوف في إمعان و كأنها تقيمه بينما هتف رؤوف في توتر :

- لماذا تقيمون هذه الضجة من أجل سؤال بسيط ؟ .. كل ما أريده هو أن أتحدث معها .. سماح .. سماح معرفة قديمة و أريد أن أطمئن عليها أرجوكِ .. يجب أن أراها .. ثم .. من أنتِ بالضبط لتفرضي وصايتك عليها ؟ ..

سماح يتيمة و ليس لها في هذا العالم غيري .. أنا فحسب .

لاح على شفتي المرأة شبح ابتسامة و هي تهتف في عتاب :

- تصريح غريب من شخص لم يرها منذ اثنا عشر عاماً أو بالأحرى لم يرها قط قبل اليوم فأنت لم تكن ترى يا رؤوف بك .. قيل لي أنك كنت أعمى و من يدري ؟ .. ربما لا زلت أعمى حتى الآن .

هتف رؤوف في لهفة :

- تعرفين من أنا ؛ لكنك قد لا تعرفين من سماح بالنسبة لي .. من الواضح أنها قد حكت لكِ عما بيننا لكن أنا .. على الأقل من حقي أن أدافع عن نفسي .. أنا ...

هذه المرة ابتسمت المرأة بالفعل حتى لمعت أسنانها الذهبية و هي تهتف :

- لما لا تشرب قدحاً من القهوة في مكتبي لنحظَ ببعض الخصوصية ؟ .. لديك كلام لن تحب أن يسمعه أحد غيري ولديّ كلام لا أرغب أنا نفسي في أن أقوله لكنني مضطرة .. دعني

أولاً أعرفك بنفسي .. أنا زينب كساب .. مالكة هذا الفندق و مكتبي في آخر هذا الرواق و يمكنه أن يحظَ بتشريفك .

التقط رؤوف قدح القهوة من يد السيدة التي استقبلته في مكتبها و هو يهتف في توتر :

- ماذا قالت لكِ سماح عني ؟ .. أنني سافل و جبان .. استقويت عليها و أذللتها و تخليت عنها .. هل قالت أنها تكرهني ؟ .. قولي الحقيقة أرجوكِ .. هل قالت أنها تكرهني ؟

جلست المرأة خلف مكتبها و هي تهتف :

- في الحقيقة لا .. لم تقل قط أنها تكرهك .. لم تقل أي شيء على الإطلاق .. سماح خرساء .. على الأقل منذ أتت لتعمل هنا في الفندق .. هي تنفذ عملها بدقة و دأب ثم تقضي باقي الوقت في عزلة غريبة .. أعرف القليل عما بينكما بالفعل لكن ليس هي من أخبرني به .. بهاء هو الذي فعل .

غامت عيون رؤوف و قطب جبينه و هو يهمس في توتر :

- بهاء من ؟

ارتشفت المرأة القليل من قهوتها قبل أن تهتف :

- ابن أخي .. هو الذي أتى بها إلى هنا و طلب مني الاعتناء بها و توفير عمل لها ومكان تقيم فيه .. تعرف يا رؤوف بك أنه ليس من الطبيعي أن نسمح بأن تعمل فتاة سبق لها الإدانة في قضية دعارة بفندق محترم كفندقي هذا ولكن سماح استثناء .. بهاء أراد مساعدتها على أن تعيش بعيداً عن الوحل و لم أستطع أن أخذله عندما لجأ لي .. في كل الأحوال ليس من الرحمة أن أتخلَ عن فتاة وحيدة و أتركها نهباً للذئاب لمجرد الجبن من تحمل مسئوليتها .. هذا لا يمنع من أن صحيفتها الجنائية سر لا يعلم به أحد من العاملين هنا لأنني لا أستطيع أن أخاطر بسمعة فندقي و لا أريد أن يفتضح هذا السر الآن .. تفهمني بالقطع يا رؤوف ؛ أليس كذلك ؟

ازداد توتر رؤوف و هو يهتف :

- من بهاء هذا ؟ .. أقصد من يكون بالنسبة لها ليهتم بها لهذا الحد ؟ ..

هتفت المرأة مبتسمة :

- ابن أخي رجل يتجاوز الخامسة و الخمسين من عمره الآن و ليس هو الند الذي يمكن أن يثير غيرة شاب مثلك .. تعاطف معها و حاول مساعدتها لأنه صدقها و لأنه أب و لا يتمنى من الله سوى الستر لبناته .. بهاء طبيب .. تعرف على سماح عندما قطعت شراييها بعد دخولها إلى الإصلاحية بأيام قليلة .. أنقذ حياتها و أبقاها في المستشفى حتى وضعت جنينها .

امتقع وجه رؤوف بشدة و هو يتمتم :

- جنين .. مستحيل .

هتفت المرأة في ضيق :

- ولماذا مستحيل ؟ .. هل تعرف ما الذي من الممكن أن يكون مستحيلاً يا فتى ؟ .. عندما تمر طفلة في سن سماح بما مرت به ؛ و عندما تدان بتهمة بشعة لم ترتكبها و تقضي سنوات طويلة في مكان مريع مثل الإصلاحية لمجرد أنها ضحية اغتصاب و لا تستطيع أن تدافع عن نفسها ؛ و عندما تخسر كل شيء حتى الطفل الذي انتزعوه من حضنها بلا

شفقة .. عندها قد يكون المستحيل الوحيد هو ألا تكره المجرم الذي فعل كل هذا بها و لو كنت مكانه لا أظن أنني سأجد الوقاحة الكافية لأواجهها و أنا أتجاهل كل ما فعلته بها و كأن شيئاً لم يكن .

تدفقت الدموع فجأة على وجه رؤوف لكنه ظل صامتاً و لم يهمس و لا بحرفٍ واحد .. نهض في صمت و غادر الغرفة و الفندق و ظل يسير على شاطئ البحر الذي تتلاطم أمواجه و كأنها تندفع في معركة طاحنة مع الرياح لا أحد يعلم متى تنتهي حتى يهدأ الموج و تسكن العاصفة و يعم السكون .

كان رؤوف يسير على الرمال و هو يتساءل هل أتى إلى هذه المدينة الهادئة ليهرب من بشاعة الواقع بكل جراحه ومخاذيه أم ليواجه خطايا الماضي التي لا شيء يستطيع أن يمحوها حتى الزمن ؟ .

لسنواتٍ طويلة كان يعيش على أملٍ واحدٍ فحسب هو أن يعثر على سماح .. أن يجد حب عمره الذي لا ينساه و أمل حياته الذي لا

يملك سواه و السعادة التي يتمنى أن يعيش معها إلى الأبد .. كان يحلم بأن يتجاوزا كل الآلآم ؛ و يصفحا عن كل الذنوب ؛ و ينسيا معاً كل الفوارق التي بنت بينهما جدراناً و سدوداً لن يسمح من حولهما بأن يتجاوزاها أبداً لكنه أبداً .. أبداً لم يتخيل أن سماح تكرهه .. من المستحيل أن تكرهه .. كيف يعيش من الأساس لو كانت سماح تكرهه ؟ .. و لما يفعل ؟ .. ليس للحياة قيمة بدونها و ليس للمستقبل معنى سواها و لا يمكن أن يخسرها بعد أن وجدها أخيراً .. لا .. مستحيل .

الفصل السابع عشر

زحف الليل بطيئاً على الشاطئ الذي خلا إلا من رؤوف الذي كان يسير بلا هدى غارقاً في تعاسته وبؤسه و قسوة الأفكار التي تتزاحم في رأسه و ثورة العواطف التي ثارت في قلبه و لا تريد أن تستكين .

كان رؤوف يرتجف من برودة الجو القارسة حتى أنه فكر في العودة إلى الفندق لكنه لم يستطع أن يفعل ؛ لا يريد أن يعود إلى المكان الذي ظل يحمي حبيبته لسنواتٍ طويلة من الضياع و منحها ما عجز هو نفسه عن أن يمنحها إياه لأنه لم يكن يعرف كيف يستطيع أن يواجه الكره في عينيها لو أنه رآها أمامه فجأة .

مع هذا كان يعرف أنه يجب أن يعود .. يجب أن يراها و أن تسمعه .. يجب أن يتوسل لها لتغفر له و يجب أن تفعل .. لا يمكن أن يظل يعيش كالموتى بدونها بعد أن وجدها أخيراً و بات من الممكن أن يستعيد حياته على يديها .

عندما قرر العودة بالفعل رآها .. انتفض قلبه في شوقٍ و لهفة و هو يحدق فيها جالسةً على الصخور عند طرف الشاطئ و الأمواج تتلاطم تحت قدميها و هي منكسة الرأس و غارقة في ذكريات قديمة مريرة .

اقترب رؤوف من سماح و هو يفكر في أنها تبدو من بعيد و كأنها تمثال لكنه عندما اقترب منها و رأى ارتجافة جسدها النحيل الذي تمزقه برودة الليل و الدموع التي تتساقط على أهدابها الواحدة بعد الأخرى اعتصر الألم قلبه فهو أكثر شخص في هذا العالم يعرف كم تتألم كما أنه أكثر شخص في هذا الكون قد آذاها .

انتزع رؤوف معطفه الصوفي و وضعه على كتفيها قبل أن يجلس على الصخور أمامها و هو يهمس :

- لماذا تهربين مني ؟ .. من حقي أن تسمعيني يا سماح .. ربما ليس من حقي فعلاً لكنكِ ستسمعيني في كل الأحوال .. أنا لا أنكر أنني قد ظلمتك .. و إذا كنتِ تكرهينني فعلاً فلن أستطيع أن ألومك .. لكنك لا تكرهينني

يا سماح ؛ أليس كذلك ؟ .. أنتِ تعلمين أن كل ما قاسيتيه بسببي لم يكن بإرادتي ؛ لم أكن حراً لأتحمل مسئولية الحب الذي جمع بيننا .. كنت أعمى .. صغير السن .. ضعيف الإرادة .. لا أقوى على حمايتك من عالم موحش لم يرحمك .. عجزت حتى عن حمايتك من نفسي .. لكنني أستطيع تغيير كل هذا الآن .. أستطيع أن أحارب العالم بأسره لأجلك إن اقتضى الأمر .. فقط سامحيني و ثقي بي .. أتوسل إليكِ يا سماح .. سامحيني و ثقي بي .. دعينا نوثق العهد الذي بيننا على يد مأذون .. كوني زوجتي أمام القانون و الناس و الدنيا بأسرها .. أرجوكِ .

ظلت تبكي في صمت ؛ لم تكن تنظر إليه وظن للحظة أنها ربما لا تسمعه .. مد أصابعه القوية واحتوى كفها قبل أن يرفعها إلى شفتيه ويقبلها في حنان و هو يهمس :

- وحشتيني .. لا يمكنك أن تتخيلي أبداً إلى أي مدى وحشتيني .

تركت سماح رأسها يستند إلى صدره فضمها بقوة و قبل شعرها و هو لا يزال يردد :

- وحشتيني .. وحشتيني .

عندما زأرت السماء فجأة بوحشية ومزق ظلمة الليل شعاع البرق و انهمر رذاذ المطر عليهما سارا معاً عائدين إلى الفندق و هو لا يزال يحيطها بذراعه و يضمها إلى صدره و هي لا تزال صامتة و لم تنطق بحرفٍ واحد .

في الفندق كانت هناك حركة غريبة و كأن هناك حالة جماعية من السعادة قد انتابت الجميع ؛ فكر رؤوف للحظة في أن العالم كله يشعر بالسعادة التي تتدفق في قلبه و هو يضم سماح إلى صدره و يعلم أنه أخيراً سيحقق حلم حياته لكنه انتبه إلى أن هذا ليس منطقياً لذا سأل موظف الاستقبال عما يحدث بالضبط فهتف الرجل في ابتهاج :

- ألا تعلم بعد ؟ .. ألم تسمع بيان نائب رئيس الجمهورية الذي أذيع منذ قليل ؟ .. تنحى الرئيس عن السلطة أخيراً و نهائياً .. من كان يصدق أن شيئاً كهذا من الممكن أن يحدث ؟ .

التفت رؤوف إلى سماح وهمس في حنان :

- بعد أن عثرت على حبيبة عمري أخيراً ونهائياً يمكنني أن أصدق أنه لم يعد هناك مستحيلات و كل شيء من الممكن أن يحدث .. المهم هو أن نفكر في الخطوة التالية بحكمة .. و أنا عن نفسي لا أفكر الآن سوى في شيءٍ واحد .. أين أجد الآن مأذون يحقق لي حلم حياتي ؟

أقبلت نحوهما زينب و هي تبتسم فارتمت سماح في حضنها بينما هتف رؤوف في حماس :

- هل يمكنك أن تكملي جميلك معنا و تجدين لنا مأذوناً شرعياً بأقصى سرعة ؟ .. انتظرت إعلان زواجي من هذه الحسناء لسنواتٍ طويلة و لم أعد مستعداً للانتظار و لا لليلة واحدة أخرى ؟

هتفت زينب في قلق :

- هل فكرت جيداً في هذه الخطوة ؟ .. حسب علمي لديك أسرة لن ترحب كثيراً بهذا الزواج و ستحاربه بكل قوتها و سماح تحملت الكثير

و لو لم تكن قادراً على حمايتها فدعها لي .. ستعيش معي في أمان و لن تتأذى .

هتف رؤوف في ثقة :

- سأحميها بعمري إن اقتضى الأمر .. صدقيني يا زينب هانم .. أنا لم أعد ذلك المراهق الأعمى ابن الثمانية عشر عاماً الذي لا يملك حق اختيار مصيره .. أنا رجل ناضج و حر الآن و أعرف كيف أتخذ قراراتي بنفسي و أفرضها على الجميع .. كلهم يعلمون أن سماح زوجتي و لا ينقص زواجنا هذا سوى ورقة لإشهاره في السجلات لا أكثر ولا أقل و لا أحد سيجرؤ على الاقتراب منها أو أن يمسها لأنني سأتصدى للجميع .. سماح خط أحمر و لن أسمح لأحد بأن يقترب منه خاصةً أهلي .. ثم إن الظروف الحالية ستربكهم لبعض الوقت و سيجعل زواجي الذي لا يروق لهم آخر شيء من الممكن أن يفكروا فيه .. معالي الوزير السابق و النائبة السابقة زوجته لديهما من المعارك ما يكفيهما و لن يرغبا في خوض معارك جديدة .

تم عقد قران رؤوف و سماح في مكتب زينب و شهد على العقد اثنان من العاملين في الفندق قبل أن يأخذ رؤوف زوجته إلى غرفته و هو لا يصدق السعادة التي يشعر بها و لا أن كل هذا قد حدث فعلاً و أنه ليس حلماً من أحلام اليقظة .

أغلق رؤوف باب الغرفة خلفه و ضغط زر الإضاءة قبل أن يلتفت إلى سماح التي وقفت أمام زجاج باب الشرفة المغلق و هي تتأمل السماء الملبدة بالغيوم و قد أضاءت بالألعاب النارية التي أطلقها المحتفلون في الشوارع بما اعتبروه نجاحاً للثورة .

شغل رؤوف التلفاز على قناة الجزيرة التي كانت تنقل على الهواء مباشرة مظاهر الاحتفال التي انتشرت في كل المحافظات و هتف رؤوف :

- سبحان الله !! .. من كان يتخيل أنني سأعثر عليكِ بعد أن باعدت بيننا سنوات طوال و أننا سنتزوج في يوم تاريخي ربما سيظل المصريون يحتفلون به في كل عام حتى قيام الساعة .. ومع هذا .. ليس هناك في هذا

الكون من هو أسعد مني الآن فنحن أخيراً معاً بين أربعة جدران يا سماح .. ألم يكن هذا ما تمنيناه طويلاً جداً ؟ .. أنا على الأقل ظللت أنتظر هذه اللحظة و أتمناها مع كل نفس يتردد في صدري منذ رحلتِ عني و تركتيني .

التفتت سماح نحوه وهي تهمس :

- لكنني لم أتركك .

اتسعت عيون رؤوف و اقترب منها و هو يهتف في استغراب :

- سماح ..هل تتكلمين ؟ .. لما قالوا لي أنكِ خرساء إذاً ؟

لمعت الدموع في عيون سماح و هي تردف و كأنها لم تسمعه :

- الدكتورة هي التي خدعتني و استدرجتني إلى خارج الفيلا .. عندما تركتك عند مكتب والدك وجدتها تنتظرني في الحديقة و أصرت على أن أذهب معها إلى الملجأ .. ادعت أن شادية مريضة و تريد أن تراني قبل أن تموت .. أردت أن أنتظرك لتذهب معي لكنها قالت أن

الوقت ليس في صالحي و أن شادية قد تموت قبل أن ينتهِ اجتماع والدك معك .. كنت مذعورة على أختي و لم أكن أعلم أنها قررت أن تغدر بي و تحنث بوعدها لأمي .. كان أبي في انتظاري في الملجأ و سلمتني له ..

انفجرت سماح باكية فضمها رؤوف إلى صدره ؛ لا يمكن أن تنسَ القسوة في عيون والدها و هو يجذبها من شعرها و يدفعها أمامه لتغادر الملجأ معه و لا الشماتة في عيون شاهيناز التي كانت تتأمل ما يحدث و هي مسرورة بأنها قد انتزعت سماح من حياة ابنها بنفس البساطة التي زرعتها بها .

الفصل الثامن عشر

من المستحيل أن تنسَ سماح الأيام القاسية التي عاشتها في البدروم الذي أعادها والدها إليه بعد أن أصبح خراباً بعد وفاة أمها و تفرق أخوتها ؛ و لا كيف كانت تتمنى الموت في كل لحظة و هي تعلم أنها عادت لتلقى نفس المصير الذي سبقتها إليه أخواتها من قبل و أنها لن تستطيع أن تدافع عن نفسها أمام والدها أو أن تقول له لا بعد كل الأكاذيب التي رددتها شاهيناز عنها و أقنعت والدها بها .

هتف رؤوف في توتر :

- أية أكاذيب ؟ .. ما الذي قالته أمي بالضبط ؟ .. هي لم تكن تعلم بما جرى بيننا في ذلك الوقت .

هتفت سماح في مرارة :

- و من تحدث عنك ؟ .. الدكتورة لم تخبره بأنني كنت أقيم في بيتها طوال الشهور التي أخفتنا فيها أمي بعيداً عنه .. قالت أنني كنت في الملجأ لكنها لم تعد مستعدة لبقائي به بعد أن اعتدت التسلل ليلاً ليلة بعد ليلة من خلف ظهر المشرفات و العودة قبل أن يستيقظ

الموجودون و يسألوني إلى أين أذهب و ماذا أفعل .. قالت أنني ساقطة أبيع نفسي على الأرصفة وهي لا تقبل أن يكون الملجأ الشريف الذي تديره ستارة يتخفى خلفها أمثالي .

هوى رؤوف جالساً و هو يهمس :

- كفى يا سماح .. كفى أرجوكِ .

لم تكن سماح مستعدة للعودة لخرسها من جديد ؛ وجدت أخيراً من يستطيع أن يسمعها و يصدقها و يحس بوجعها و لا تستطيع أن تتوقف قبل أن تلقي بين يديه حملها الثقيل و تقر بكل أوجاعها وكل ما قاسته و تعذبت به .

جلست سماح على الأرض و أسندت رأسها على خزانة الملابس و هي تهمس :

- كان غاضباً للشهور التي مرت دون أن ينتفع بي .. ضربني مراراً لأنني جاحدة و أنانية و لا أفكر في الأب الذي رباني و له حقوق عليّ و يجب أن أطيعه و أعمل في المكان الذي يحدده لي .. لم يكن أب بل مجرد قواد ..

قواد لم يكن يفكر سوى في البضاعة التي يتاجر فيها و ليس لها أية كرامة أو اعتبار عنده و لم أكن مستعدة للبقاء تحت رحمته التي لا وجود لها و لهذا هربت .

هتف رؤوف في توتر :

- إلى أين ؟ .. لم يكن لكِ من تلجئين إليه .

انهمرت دموعها و هي تهتف :

- إلى الشارع .. ظننت أن الأرصفة قد تكون أكثر رحمة من أبي و من أمك لكنني كنت مخطئة .. لثلاثة أيام ظللت أسير في الطرقات على غير هدى حتى تعبت و كدت أن أموت جوعاً و أنا لا أجد مكاناً يؤويني و لا عملاً يقبل بي و لا أحداً يحاول مساعدتي .. لم يكن أمامي سوى أن ألقي نفسي في النيل أو أن أعود إلى أبي صاغرة ... أو أن أعود إليك ..

هتف رؤوف في لوعة :

- و لماذا لم تعودي لي ؟ .. كنت أنتظر في كل لحظة أن تعودي لي .

هتفت سماح في مرارة :

- لكنني عدت فعلاً إليك .. ذهبت إلى الفيلا و أنا أكاد أن أفقد وعيي و حاولت أن أراك لكنهم لم يسمحوا لي .. الدكتورة كانت تتوقع عودتي إليك و أمرت حرس الفيلا باحتجازي خارجها حتى أتى أبي و سلمتني له .

هذه المرة لم تعد سماح مع والدها إلى البدروم ؛ دفعت له الدكتورة ما يكفي لغلق هذه الصفحة نهائياً من حياة ابنها و كانت تعرف أنها تستطيع أن تتخلص من سماح قبل أن تصبح مصدر إزعاج مستمر لها .

كان جابر يدفع سماح أمامه بلا رحمة حتى ذهبا إلى شقة كبيرة في منطقة هادئة كانت سماح تراها لأول مرة ؛ ألقاها عند قدمي صاحبة الشقة التي ضحكت وهي تهتف :

- حرام عليك .. ستفسد البضاعة وستقل قيمتها كثيراً لو شوهت يدك القاسية وجهها الجميل .. اتركها لي وأنا أعرف كيف أتفاهم معها .

توسلت سماح إلى والدها كي لا يذهب و يتركها وحدها في هذا المكان المريع ومع تلك

المرأة البشعة .. توسلت إليه ألا يفعل هذا بها لكنه ذهب و تركها وحدها دون أن يبالِ بدموعها .

كانت سماح تشعر بأنها تغرق في بحر لا أحد يستطيع انتشالها منه عندما حبستها المرأة في دورة المياه مع فتاتين نزعتا ثيابها عنوة و حاولتا تحميمها و جبرها على ارتداء ثياب جديدة ونظيفة ومكشوفة .

كانت سماح مرعوبة و مغلوبة على أمرها حتى أنها اختطفت مقصاً و هددت الفتاتين بأنها ستطعن نفسها إذا لم تبتعدا عنها .. كانت تهدد و هي تفكر في أن هذا ربما كان هو ما يجب أن تفعله فعلاً لأنها لم تكن مستعدة لأن تتحمل الحياة الرخيصة التي تنتظرها في هذا الوكر .

فكرة الموت فجأة بدت لها و كأنها طوق النجاة الوحيد مما هي فيه و قبل أن تشرع في تنفيذها كانت الشرطة تقتحم المكان و تعتقل كل من فيه و بينهم هي .

هب رؤوف واقفاً و هو يهتف في استنكار :

- أتعنين أنهم قد حاكموكِ بجريمة لم ترتكبيها أصلاً ؟ .. و لكن هذا ظلم .. على أي أساس وجهوا لكِ الاتهام ؟ ؛ و لماذا لم تدافعي عن نفسك ؟

هتفت سماح في لوعة :

- و بماذا أدافع عن نفسي ؟ .. وجدوني عارية في شقة تدار فعلاً في الدعارة و أنا .. وأنا من الأساس لم أكن عذراء لأنكر التهمة .

بهت وجه رؤوف بشدة قبل أن يهمس :

- لكن هذا لم يكن ذنبك .. لو قلتِ الحقيقة و سألوني لما أنكرت جريمتي .. لم أكن لأقبل بأن تدفعي ثمن جنايتي عليكِ مرتين .

نهضت سماح و حاولت أن تمسح دموعها و هي تهمس في أسى :

- لو قلت الحقيقة لم يكن أحدٌ ليسألك لأن أحداً لم يكن ليصدقني .. أنا لم يكن لديّ ما أدافع به عن نفسي ولا أحد كان سيحب الدفاع عني .. الإصلاحية هي المكان المناسب لأمثالي حتى

لا أكون مصدر إزعاج لأحد .. خاصةً الدكتورة .

اقترب رؤوف من سماح وهو يهتف في توتر :

- قولي الحقيقة يا سماح .. إلاما تلمحين بالضبط ؟ .. هل تقولين أن أمي لها يد في تلفيق التهمة لكِ ؟ .. هل قصدتِ هذا فعلاً ؟

صمتت سماح للحظة قبل أن تهمس :

- الدكتورة شهدت ضدي يا رؤوف .. تبرعت بالشهادة دون أن يستدعيها أحد و قالت أنها أبعدتني من الملجأ و سلمتني لوالدي لسوء سلوكي .. رددت نفس الأكاذيب التي قالتها لوالدي من قبل و لكن في محضر رسمي و أيد أبي أقوالها .. حتى أنه أنكر أنه قد أخذني إلى ذلك المكان رغماً عني .. ادعى أنني هربت منه بمجرد خروجي من الملجأ و لم يكن يعرف شيئاً عني .. كلهم وقفوا ضدي يا رؤوف و أولهم أمك حتى بعد .. حتى بعد أن علمت بأن تقرير الطب الشرعي أثبت أنني حامل .

انتفض رؤوف و هو يهتف في ذهول :

- حامل ؟ .. أتعنين أن الجنين الذي تحدثت عنه زينب هانم ابني ؟

أشاحت سماح بعيونها عنه و هي تنتحب فهمس رؤوف في ندم :

- أنا آسف يا سماح .. لم أقصد أن أجرحك .. أنا ....

لم يكن يجد كلاماً يمكن أن يخفف عنها أو أن يعبر عما يشعر به فعلاً ؛ لذا بتر عبارته و ضمها إلى صدره .. تركت سماح دموعها تنسكب في حضنه وهي تهمس :

- لماذا تزوجتني يا رؤوف ؟ .. ما دمت تظن أنني ...

قاطعها رؤوف هاتفاً في مرارة :

- لأنني أحبك .. و لأنني لا أستطيع أن ألومك إذا احترقتِ بالنار التي أشعلتها حولك و ألقيتك فيها .. أنتِ ضحيتي قبل أن تكوني حبيبتي ولا أعرف ماذا أفعل لأكفر عن جنايتي عليكِ .

رفعت سماح عيونها إليه و هي تهمس في توسل :

- أعد إليّ ابني يا رؤوف .. أتوسل إليك .. أعد إليّ ابني .

الفصل التاسع عشر

جلست سماح على طرف الفراش و رؤوف بجوارها و هو يسمعها في اهتمام ؛ لم يكن من السهل أن تستعيد ذكريات الأيام الأولى لها في الإصلاحية والتي كانت تمر ببطء وسماح مذهولة لا تستطيع استيعاب ما يحدث لها .

كانت تقضي مدة عقوبتها عن جناية لم ترتكبها ؛ تتحمل وصمة عار لم يكن لها يد فيها ؛ تحمل في أحشائها نبتة من الرجل الوحيد الذي أحبته طوال حياتها و تعرف أنها قد لا تراه بعد اليوم أبداً و لا مكان لها في حياته .

يسألها الجميع طوال الوقت عن الجنين الذي لا تستطيع أن تبوح باسم أبيه وهي ليس لديها ما تستطيع أن تقوله .. الماضي خلفها صفحة لا تجرؤ على الحديث عنها ؛ و المستقبل أمامها طريق مظلم و مسدود و لا أمل به و الحاضر لحظة عليها أن تتخذ فيها القرار الوحيد الذي بدا لها صائباً في ذلك الوقت ليخلصها من كل ما هي فيه .. الانتحار .

عندما قطعت سماح شراييها كانت تأمل في الخلاص من كل أوجاعها و كانت ترغب في تخليص جنينها من المصير الذي ينتظره لكنها لم تكن تتخيل أنها قد تفشل حتى في هذا .

عندما أفاقت سماح في المستشفى فتحت عيونها على ابتسامة حانية و عيون تفيض بالطيبة لرجل يلبس معطف الأطباء و يتعامل معها بمودة لم يعاملها بها أحد حتى أنه الوحيد الذي كانت مستعدة لأن تمنحه إجابات عن كل الأسئلة التي سألها لها الجميع عداه .

بدون تردد فتحت سماح قلبها أمام بهاء و حكت له عن كل ما قاسته في حياتها حتى أنها لم تخفي عنه اسم رؤوف .. لم يكن بهاء يجد كلمات يمكن أن تواسيها أو تخفف عنها مصيبتها لكنه حاول مساعدتها بالسلطة الوحيدة التي يملكها فأبقاها في المستشفى تحت رعايته حتى تلد طفلها فقد كانت ضعيفة و مكتئبة و عرضة لأن تحاول الخلاص من حياتها مرة أخرى و أراد أن يكون قريباً منها ليرعاها بنفسه .

تنهد رؤوف في حرارة و هو يهتف :

- قالت لي زينب هانم أنه هو الذي عهد بكِ إليها و أنكِ هنا منذ غادرتِ الإصلاحية و لكن يا سماح .. الولد ؟ .. أين الولد ؟

بكت سماح في حرقة و هي تهتف :

- سرقوه مني .. انتزعوه من حضني دون حتى أن أراه .. أنا لم أضمه إلى صدري و لا لمرة واحدة .. مرة واحدة فحسب .

ظلت سماح تبكي في انهيار حتى فقدت الوعي بين ذراعي رؤوف الذي اتصل على موظف الاستقبال و طلب منه طبيباً على وجه السرعة .

بعد دقائق قليلة كان الطبيب يغادر الغرفة بعد أن حقنها بمهدئ بينما هتفت زينب في توتر :

- ماذا فعلت بها ؟ .. البنت تبدو محطمة .

كان رؤوف يتأمل سماح المستلقية في الفراش و هي غائبة عن الوعي قبل أن يهمس :

- تخليت عنها لسنواتٍ طويلة .. تركتها تتعذب دون أن أكون موجوداً لأدافع عنها أو أخفف مما تعانيه .. و تخليت عن ابني .. الابن الذي لم أعلم بوجوده قبل اليوم .

هتفت زينب في أسى :

- و من الذي يدري أين هو الغلام الآن ؟ .. منذ انتزعه أبوها و المسكينة تتعذب بفقده و لا تصدق أنه من الممكن فعلاً أن يكون قد مات كما قيل لها .

هتف رؤوف في توتر :

- زينب هانم لو سمحتِ .. أنا لا أفهم شيئاً مما تقولين .. كيف انتزعه أبوها منها ؟ .. و لما ؟ .. و من الذي قال أنه قد مات ؟ .. لما لا يكون حياً حتى الآن ؟ .

هتفت زينب ببطء :

- قال لي بهاء أن والد سماح رجل مدمن و عتيد الإجرام و رغم هذا استطاع الحصول على حكم باستلام الولد من قبل أن يولد .. أتى إلى المستشفى و هي لا تزال في غرفة العمليات و استولى على الوليد حتى من قبل أن تستعيد

المسكينة وعيها و تراه .. كان معه محامي كبير من الصعب كما يرى بهاء أن يستطيع رجل وضيع أن يتكفل بأتعابه .. أسر إليّ بهاء بأن شخصاً ذو نفوذ كبير تدخل في المسألة ليتم غلقها بسرعة و المسكينة لم يكن لها من يقف معها و يدافع عن حقوقها و عندما استعادت وعيها بعد الجراحة و أدركت ما حدث لم تستطع استيعاب مصيبتها و أصابها انهيار عصبي حتى أنها حاولت قتل نفسها مرة بعد مرة لكن عناية السماء أنقذتها .. في النهاية عادت إلى الإصلاحية و قضت باقي عقوبتها ثم خرجت لتبحث عن ابنها في بيت أبيها لكنها وجدته مسجوناً بسبب قضية تعاطي .. ساعدها بهاء على الحصول على إذن لزيارته لتسأله أين تجد ابنها لكنه أخبرها بأنه قد مات .. منذ هذا الوقت و هي صامتة .. يبدو أن الصدمة قد أفقدتها النطق .

غادرت زينب الغرفة بينما استلقى رؤوف في الفراش بجوار زوجته و هو يتأملها في أسى ؛ يعرف أنها ليست الصدمة هي التي أفقدتها النطق لكن المسكينة لم تكن تعرف لماذا تتكلم إذا لم يكن سيسمعها أحد ؛ وكيف تتكلم و هي

لن تستطيع أن تصرخ بالألم الذي يمزقها .. كانت تحترق في صمت لأنها كانت تعجز عن الدفاع عن نفسها ضد كل من خذلوها و جنوا عليها و أولهم هو .

فتحت سماح عيونها و هي تستعيد وعيها ببطء في ظهيرة اليوم التالي ؛ نظرت إلى رؤوف الذي لا يزال يتأملها قبل أن تهمس :

- ألم تنم بعد ؟

همس رؤوف في حنان :

- أخاف من أن أغمض عيني فأستيقظ من الحلم الجميل الذي تحقق على يديكِ .. لا أريد أن أنام يا سماح ..أريد أن أظل أنظر إليكِ طوال الوقت مع أنني أعرف أن هذا لن يطفئ نار شوقي إليكِ .. وحشتيني .. وحشتيني يا حبيبتي .

ضمها رؤوف إلى صدره و قبلها في حرارة ؛ تحسس جسدها المرتعش بين ذراعيه برقة رغم الشوق الذي يندفع في عروقه والذي تلظى به لسنواتٍ طويلة .. عاش معها للحظات بدت كالحلم و ربما أكثر دفئاً

و روعة و في النهاية ظل يضمها في حنان وكأنه يخشى أن يتركها تتحرر من أسر ذراعيه فتضيع منه من جديد .

انتبه رؤوف بغتة إلى الدموع الساخنة التي تناثرت من عيونها و سالت على صدره فهتف في لوعة :

- سماح .. هل تبكين ؟

مسح الدموع عن وجهها و هو يردف :

- أعرف يا حبيبتي .. أنتِ تفكرين في الولد .. ابننا .. قد يكون حياً بالفعل ؛ لا يمكننا أن نثق في كلام والدك فربما هو يكذب .. لكننا سنبحث عن الولد و سنعثر عليه .. أقسم لكِ .. لو كان ابني حياً فسأرده إلى حضنك مهما كان الثمن .

هتفت سماح في لوعة :

- لن يدلنا عليه .. مجرم بلا ضمير و لا شعور مثله لم يستولي على ابني إلا لينتفع منه .. الله وحده هو الذي يعلم كيف يتاجر به .. ربما يكون قد باعه لامرأة تتسول به أو رجل يعلمه النشل .. ابننا على الأرصفة منذ اثنا عشر

عاماً بين غيلان لا ترحم و قد لا نهتدي أبداً إليه .

انفجرت سماح باكية فضمها رؤوف إلى صدره و هو يهتف :

- ابننا حي يا سماح و سيعود إلى حضنك و سأعوضه عن كل ما قاساه في حياته مهما كان .. أبوكِ سيدلنا عليه حتى لو دفعت له كل ما أملك و إذا لم يفعل فسأزهق دمه قطرة قطرة حتى يبوح بما يخفيه .

الفصل العشرون

قاد رؤوف سيارته في الطريق إلى القاهرة و هو غارق في تفكيرٍ عميق ؛ كان آخر شيء من الممكن أن يتوقعه و هو يقطع نفس هذا الطريق منذ يومين هو أنه لن يعود أدراجه إلى القاهرة مرة أخرى و هو وحيد و مجروح كما جاء منها و أنه سيجد في تلك المدينة الهادئة نصفه الآخر بل و أكثر من هذا .. وجد حقيقة في حياته ظلت مخفية عنه لاثني عشر عاماً كاملة و عليه أن يواجهها الآن .

يعترف رؤوف بينه و بين نفسه بأن كل الأفكار المفزعة التي تملأ عقل سماح و تمزق قلبها عن الحياة التي يحياها ابنهما الآن قد تكون واقعية جداً و ليس من المستبعد أن يكون الولد ضائعاً في متاهات الشوارع التي لا ترحم في غابة يملأها البشر بالجرائم و الحقارة و قد لا يكون هناك سبيل للاهتداء إليه .

مع هذا .. ساور رؤوف شعور عميق بأن الحقيقة قد تكون على خلاف كل المخاوف و الظنون التي تملأ

عقولهما الآن فهناك خطاً رفيعاً يربط بين شاهيناز و جابر لا يستطيع رؤوف أن يبتلعه بهذه البساطة .

تخلصت شاهيناز من سماح في صباح نفس ليلة زواج هايدي و هذا يجعل رؤوف يتصور أن ما جرى بينه و بين سماح في تلك الليلة لم يكن سبباً مباشراً فيما فعلته أمه فهي لم تكن تعلم بما جرى بعد كما أن الوقت لم يكن كافياً لتجد جابر و تجهز خطتها بهذه السرعة .. أغلب الظن هو أن النية كانت مبيتة لديها لتتخلص من سماح و التوقيت كان من سوء الحظ أو لحكمة لا يعلمها إلا الله و لم يكن مقصوداً على الإطلاق .

كل ما قالته سماح عن موقف أمه من قضية الدعارة يوحي إليه بهاجس غريب بأنها قد تكون خلف تلفيق القضية من الأساس .. قد لا يكون من المصادفة أن تتم مداهمة الشقة بمجرد أن تدخلها سماح و لا يستبعد رؤوف أن تكون أمه قد دفعت مبلغاً محترماً لـ جابر حتى يبلغ بنفسه عن الشقة بعد أن ترك ابنته فيها .

فكر رؤوف في أن أمه ظلت لاثني عشر عاماً كاملة تخفي عنه أنها تعرف أن له ابناً من سماح .. حقيقة خطيرة لا يستطيع رؤوف أن يتجاهلها أو أن يغفرها للأم التي قالت له ذات يوم أنها تفضل أن تراه ميتاً على أن ترَ سماح زوجةً له .. فما الذي كانت شاهيناز مستعدة لتفعله حتى لا يكون لها حفيد من سماح ؟

زفر رؤوف في حرارة و هو يحاول أن يقاوم الأفكار البشعة التي هاجمت عقله بلا رحمة .. جابر لم يفكر في الاستيلاء على الطفل من تلقاء نفسه لكنه فعل هذا من أجل من يستطيع أن يدفع الثمن .. بالأحرى من أجل من كان مستعداً لأن يدفع أي ثمن حتى لا يكون هناك وجود لهذا الطفل بالذات .

كانت سماح قد جلست بجوار رؤوف في سيارته التي انطلق بها في الطريق الساحلي بسرعة كبيرة و هي تتأمل الطريق في صمت .. من حينٍ لآخر كانت تنظر إلى رؤوف بطرف عينها فإذا به لا زال غارقاً في دخان سجائره التي يحرقها الواحدة بعد الأخرى و في أفكاره .

ظلت سماح صامتة حتى انتفض رؤوف فجأة فمدت أناملها و لمست كفه فوق عجلة القيادة و هي تهمس :

- فيما تفكر ؟

هتف رؤوف في توتر :

- فيما ينتظرنا في القاهرة يا سماح .. الاحتمالات كثيرة و يجب أن نكون مستعدين لها جميعاً .. نحن لسنا متأكدين مما إذا كان والدك قد أنهى مدة عقوبته في السجن أم لا .. و هل لا زال يقيم في نفس العنوان الذي تعرفينه أو ربما انتقل إلى مكانٍ آخر ؟ .. قد لا يكون العثور عليه بالسهولة التي نتمناها و حتى لو عثرنا عليه لا شيء يضمن لنا أن يقول الحقيقة .. شخص مخادع ؛ معدوم الضمير و الشعور مثله قد يتلاعب بنا كثيراً حتى يتأكد من أنه سيصل إلى أقصى استفادة ممكنة منا قبل أن نحصل منه على معلومة مفيدة .. والمصيبة أنه ليس محل ثقة و أي شيء من الممكن أن يقوله سيظل موضع شكٍ كبير .. متاهات يا سماح .. متاهات كثيرة .. و يجب أن نكون مستعدين لكل المفاجآت يا حبيبتي بما فيها ...

قاطعته سماح هاتفة في لوعة :

- لا بالله عليك .. لا تقل ما أراه في عينيك .. ابني حي .. ابننا حي يا رؤوف .. إياك أن تفكر في أنه قد مات .. أبي كذاب .. أنا أعرف أنه كذاب و أن ابني حي .. أنا لم أرَ ابني و لا لمرة واحدة في حياتي لكنني أعلم أنني لم أخسره بعد .. أنا لا أعرف كيف يبدو ؟ .. ما لونه ؟ .. كم بلغ طوله الآن ؟ .. وهل يشبهني أم يشبهك ؟ .. لكن قلبي سيعرفه عندما أراه .. صدقني يا حبيبي .. قلبي سيعرفه عندما أراه .

أوقف رؤوف السيارة على جانب الطريق و أحاط وجهها بكفيه و هو يهمس :

- أول مرة أسمعك و أنتِ تقولين حبيبي .. و حبيبك يصدقك يا سماح .. بل أنا أكثر شخص في هذا الكون يستطيع تصديقك .. فأنا الذي أحبك دون أن يراك و قلبي هو الذي هداني إليك مع أنني لم أكن أعرف عنكِ سوى أنكِ تسكنين قلبي فحسب .

انطلق رؤوف بالسيارة مرة أخرى في اتجاه القاهرة ؛ كانت الاعتصامات لا تزال مستمرة في ميدان التحرير و الميادين الرئيسية في كل المحافظات لذا لم يفكر رؤوف في الذهاب إلى شقته فهو يعرف أن الدخول إلى شارع رئيسي وحساس مثل شارع جامعة الدول لن يكون سهلاً كما أنه كان يرى أن سماح ملهوفة على الذهاب إلى والدها ورغم أنه لم يكن يتوقع أن تأتِ هذه الزيارة بالنتيجة التي تتمناها سماح إلا أنه لم يرد أن يخذلها .

دخول رؤوف بسيارته الفارهة إلى الحارة التي يقيم فيها جابر أثار ذوبعةً كبيرة لا لأن السيارة غريبة عن المنطقة فحسب ولكن لأن أعصاب الجميع كانت مشدودة ومتحفزة ضد أي شخص غريب و غير معروف بعد أن انسحبت الداخلية من الشوارع في مساء جمعة الغضب ٢٨ يناير و أصبحت اللجان الشعبية هي المسئول الوحيد عن مساعدة قوات الجيش في حفظ الأمن و النظام .

نظر رؤوف في قلق إلى الرجال الذين أحاطوا بالسيارة و هم يحملون العصيان الغليظة

و السكاكين بل و السيوف أيضاً و كأنهم يهمون بالدخول في معركة حربية بينما قفزت سماح إلى خارج السيارة عندما لمحت المعلم عنتر صاحب القهوة و الذي يعده الجميع كبير الحارة و نادت عليه باسمه .

أشار الرجل للمتربصين بالسيارة بأن يلتزموا الهدوء و اقترب من سماح التي هتفت :

- ألا تعرفني يا معلم عنتر ؟ .. أنا سماح بنت جابر صديق و المرحومة منيرة .. و هذا زوجي رؤوف .. جئنا بحثاً عن أبي .. ألم يعد موجوداً هنا ؟

لانت ملامح الرجل عندما تعرف عليها حتى أنه أشار للجميع بالعودة إلى أماكنهم و أصر على استضافتها هي و رؤوف في القهوة .. أخبرها بأن والدها منذ غادر محبسه و هو يظهر يوماً و يختفي أياماً وأنه قد تمادى في الإدمان حتى طمست المخدرات على عقله و لم يعد أحدٌ في الحارة يحب التعامل معه .

طلب رؤوف من عنتر أن يتصل به فور ظهور جابر و أعطاه أرقام هواتفه كلها و أكد

عليه بأنها مسألة حياة أو موت بالنسبة له هو و سماح فوعده الرجل بأن يتحفظ على جابر بمجرد أن يظهر أو يلمحه أحد من رجاله أو من أبناء الحارة في أي مكان ثم يتصل به فوراً .

ركبت سماح بجوار رؤوف في السيارة و هي تنتحب ؛ فانطلق رؤوف بالسيارة وهو يهتف في رفق :

- كنا نعلم أن المسألة ليست سهلة و أننا سنواجه بعض الصعوبات يا حبيبتي ؛ و لنحمد الله على أن أباكِ لا زال حياً و لا زال في وسعنا استجوابه وإلا لكانت الأمور أسوأ مما نحن عليه بكثير .

هتفت سماح في أسى :

- لديك حق .. في يوم من الأيام لم أكن أتمنى شيئاً في حياتي كما تمنيت أن يموت أبي و أخلص منه لكنني الآن سأبتهل إلى الله في كل لحظة لكي يمد في عمره حتى أرى ابني .. أريد ابني يا رؤوف .. أريد أن أضمه إلى صدري و لو للحظة واحدة حتى لو مت بعدها .

تنهد رؤوف في أسى و لم يقل شيئاً ؛ لا يعرف كيف يخبرها بأن فرصة أن يكون ابنهما على قيد الحياة ضئيلة جداً دون أن يحطم قلبها الذي احترق بنار الفراق و لوعته لسنواتٍ طويلة .. لكن آجلاً أو عاجلاً قد لا يكون أمامهما سوى مواجهة الحقيقة مهما كانت .

الفصل الواحد و العشرون

عندما اجتازت سيارة رؤوف بوابة الفيلا شحب وجه سماح بشدة و هي تهمس :

- ماذا نفعل هنا ؟

أوقف رؤوف السيارة والتفت نحوها ؛ كانت ترتجف هلعاً وقد بدا و كأنها تتمنى القفز إلى خارج السيارة لتعدو مغادرةً الفيلا كلها ..

كان رؤوف يشفق عليها مما تحس به لكنه كان مضطراً .. لديه شكوك كثيرة يجب أن يتأكد منها و وجودهما هنا الآن هي الطريقة المثالية ليفعل .. هتف رؤوف و هو يفتعل ابتسامة :

- ماذا ؟ .. لا تقولي أنكِ لم تشتاقي للاستراحة .. لدينا هنا ذكريات لا تنسى .

همست سماح بصوتٍ متحشرج :

- لكننا لن نقيم هنا .. تعلم أنه لا أحد سيقبل بوجودي هنا .. معالي الوزير والدكتورة ...

قاطعها رؤوف هاتفاً :

- معالي الوزير السابق الآن لديه مشاكل أكبر بكثير من مسألة زواجنا .. الثورة نجحت في زعزعة السلطة و أسقطت النظام و كما أتوقع ستكون هناك محاكمات لبعض من ترأسوا مراكز حساسة كوالدي في القريب العاجل و كذلك لرجال الأعمال الذين يملكون رؤوس أموال ضخمة و قد تكون لها مصادر مشبوهة و والدي أحدهم كذلك .. في كل الأحوال يا سماح أنتِ زوجتي و هذا بيت العائلة و لكِ مكان به مثلنا جميعاً إلا لو قررت أمي طردنا معاً ففي هذه الحالة لن يكون من الصعب أن نجد مكاناً آخر لنقيم فيه مؤقتاً حتى تنتهي الاعتصامات أو حتى أعثر على شقة جديدة بعيداً عن وسط البلد و الميادين الرئيسية .

على مضض دخلت سماح مع رؤوف إلى الفيلا وهي متعلقة في ذراعه وتكاد أن تلتصق به و كأنها تحاول أن تستمد منه الحماية و الأمان .. في سرها كانت تلعن الظروف التي أعادتها إلى هذا المكان مرة أخرى .. تحب رؤوف .. تحبه أكثر مما يمكنه أن

يصدق أو أن يتخيل .. لكنها تكره كل ما حوله من غرور وكبر وتعالي و قسوة و جبروت .

نزلت الدكتورة إلى الردهة وحدقت في سماح و كأنها تحدق في شيطان قد خرج لها من أعماق الجحيم قبل أن تلتفت إلى ابنها هاتفة :

- مرة أخرى يا رؤوف .. سمحت لنفس تلك الوضيعة بدخول بيتنا يا رؤوف .. أنا لا أفهم ما الذي يجعلك مولعاً بالخادمات و الغانيات لهذا الحد .. هل هو مرض ؟ ..

هتف رؤوف في هدوء :

- اسمعي يا أمي .. أنا هنا لأبلغكم فحسب بأنني قد عثرت على زوجتي أخيراً .. والأهم هو أن أبلغكم بأنني هذه المرة قد تداركت خطئي ووثقت الزواج بشكل رسمي .. أنا لم أعد قاصراً و سماح بلغت سن الرشد و .. آه .. نسيت أن أخبرك بأنها أم ابني .. أم أن هذه المعلومة ليست جديدة بالنسبة لكِ .

هتفت شاهيناز في ثورة :

- و من قال أنه ابنك ؟ .. ليس معنى أن هذه المومس كانت حاملاً أن هذا الحمل منك .. ما يدريك أنها لم يكن لها عشيقٌ آخر ؟

انفجرت سماح باكية فضمها رؤوف إلى صدره دون أن ينظر إليها فقد كان يحدق في عيني شاهيناز مباشرةً و هو يهتف :

- تعلمين أنه ابني يا أمي و الحمد لله على أنكِ لم تقولي كان ابنك فهذا يعني أنكِ واثقة من أن الولد لا زال حياً كما أنا واثق من أنكِ تعرفين الطريق إليه .. دليني عليه يا أمي و أعدك بأنني سآخذ ابني و زوجتي وأبتعد عن طريقك نهائياً .. لن أظل هنا ما دامت المظاهر الكاذبة والكبرياء الزائف أهم لديكِ من سعادة ابنك أو حتى حياته .. سأترك الفيلا .. سأترك القاهرة .. سأترك القارة كلها إذا كان هذا ما ترغبين فيه .. سأعود إلى أمريكا ومعي زوجتي لكنني لن أفعل هذا قبل أن يكون ابني في حضني سواء أعدتيه أنتِ لي أو عثرت عليه أنا بطريقتي .

بهت وجه شاهيناز و لم تقل شيئاً بينما انسحب رؤوف إلى الاستراحة وهو لا يزال يضم زوجته التي كادت أن تفقد وعيها حتى أنه حملها و وضعها برفق في الفراش .

جلس رؤوف في الفراش أمام سماح التي همست :

- أتظن أن الدكتورة تعلم أين ابننا بالفعل ؟

هتف رؤوف في توتر :

- لا أدري .. لست واثقاً .. مجرد شعور يا سماح يجعلني أفترض أنها لم تكن ستترك تفصيلة كهذه بعيداً عن سيطرتها .. وجود الطفل دليل على علاقتنا يؤكدها بما لا يدع مجالاً للشك و أمي تريد أن تمحو تلك العلاقة من سجل العائلة بأي ثمن .. و ما دامت قد شهدت في قضية الدعارة فقد علمت بموضوع الحمل بالتأكيد .. و رغم كل الكلام القذر الذي قالته لنا اليوم فهي في ضميرها ليست لديها ذرة شك واحدة في أن الولد ابني .

انتفضت سماح و هي تهتف في فزع :

- و هي لن تسمح بأن يكون لك ابنٌ مني .. هي قتلته يا رؤوف .. قتلت ابننا لتمحو كل ما بيننا .. هل يعني هذا أن أبي لم يكن يكذب ؟ .. هل يعني هذا أن ابني قد مات ؟ .. لا .. لا .. مستحيل .. مستحيل يا رؤوف .. مستحيل .

أجبرها رؤوف على ابتلاع بضعة أقراص مهدئة جعلتها تستسلم للنوم حتى مساء اليوم التالي ؛ و عندما استعادت وعيها كانت ضعيفة وتترنح لكنها نهضت وتجولت داخل الاستراحة التي لم ترها منذ سنين قبل أن يدخل رؤوف إلى الاستراحة و يضمها بين ذراعيه و يحملها إلى الفراش مرة أخرى .

همست سماح في ضعف :

- لا أريد أن أنام .

ابتسم رؤوف وهتف :

- ومن تحدث عن النوم ؟ .. أريدك أن ترتاحي هنا فحسب حتى آمر الخدم بأن يحضروا لنا الطعام .. ألستِ جائعة ؟ .. لم تأكلي منذ وقتٍ طويل .

هزت سماح رأسها نفياً و همست :

- أين كنت ؟

هتف رؤوف مبتسماً :

- في الفيلا .. عادت هايدي أختي من السفر لتوها رغم أنها بالكاد قد سافرت منذ مدة وجيزة .. من الواضح أن هناك مشاكل بينها وبين زوجها فهو لم يأتِ معها كالعادة بل ذهب إلى فيلا والده .. الغريب هو أن أمي ليست هنا .. ذهبت إلى الملجأ في هذه الظروف و هذا يحيرني بعض الشيء .

همست سماح في توتر :

- أتظن أن الولد قد يكون في الملجأ ؟ .. ربما هي لم تقتله .. ربما هو لم يمت كما ادعى أبي .. ما يدرينا أنه لم يكن هناك اتفاق بالفعل بين أمك و أبي ؟ .. لكن هذا لا يعني أنها قد تخلصت منه .. هو حفيدها في كل الأحوال وربما لن يهون عليها موته .

زفر رؤوف في حرارة قبل أن يهتف :

- ربما يا سماح .. ربما .. أتمنى لو أنكِ محقة .. إذا كان الولد في الملجأ فلن يصعب علينا الوصول إليه حتى بدون مساعدة أمي .. أستطيع الوصول إلى أحد العاملين بالملجأ و سأدفع له جيداً في مقابل أن نحصل على عينة من كل طفل في سن مقارب لابننا .. تحليل الأبوة سيجعلنا نتأكد مما إذا كان أحدهم ابننا أم لا .

هتفت سماح في حماس :

- لدينا في الملجأ بالفعل من يستطيع أن يساعدنا يا رؤوف .. أختي سميرة هناك فهي لم تبلغ سن الرشد بعد كما أن شادية تعمل مشرفة في الملجأ منذ تخرجت من معهد الخدمة الاجتماعية .. أنا لم أذهب لزيارتهما قط لكن د / بهاء يسأل عنهما باستمرار و يبلغني بأخبارهما طوال الوقت .. دعنا نذهب إلى الملجأ الآن .. سأزورهما و أتحدث معهما و سوف أرى الأولاد هناك .. أنا سأعرف ابني صدقني .. قلبي سيعرفه يا رؤوف لا التحاليل .. أنا ...

بترت عبارتها عندما رن جرس هاتف رؤوف المحمول و أسرع يجيب فإذا بصوت المعلم عنتر يهتف :

- ظهر جابر يا رؤوف بك .. رآه أحد رجالي عند ناصية الحارة لكنه لم يدخلها .. كانت هناك سيارة ليموزين بيضاء في انتظاره و انطلقت به بسرعة .. كان هذا منذ أقل من ساعة و قد رأيت إبلاغك فوراً كما وعدتك .

أنهى رؤوف المكالمة و التفت إلى زوجته هاتفاً في توتر :

- سيارة والدي أخذت جابر منذ أقل من ساعة .. أغلب الظن أنه مع أمي الآن .. بدلي ثيابك بسرعة يا سماح فزيارة الملجأ قد وجبت ولا يمكن تأخيرها أكثر من هذا .

الفصل الثانى و العشرون

ما إن أوقف رؤوف سيارته أمام الملجأ حتى رأى سيارات الشرطة و رجالها المتناثرين في كل مكان .. أسرع رؤوف نحو مكتب أمه و سماح تتبعه لكن رجال الشرطة منعوه من الدخول .

اقتربت إحدى المشرفات من رؤوف وهي تهتف في فزع :

- مصيبة يا رؤوف بك .. رجل مجنون اعتادت الدكتورة على أن تحسن إليه تهجم عليها في مكتبها و حاول سرقة الخزينة .. يبدو أن الدكتورة حاولت الدفاع عن نفسها وأطلقت عليه رصاصة من مسدسها .

أسرع رؤوف يقتحم المكتب و سماح خلفه قبل أن تصرخ في فزع و هي تخفي وجهها في صدر رؤوف الذي ضمها بشدة و هو يحدق في جثة الرجل الملقاة على الأرض غارقة في دمائها و حولها رجال المعمل الجنائي .. لم يكن رؤوف قد رأى هذا الرجل من قبل قط لكنه كان واثقاً من أنه جابر .

التفت رئيس النيابة و ضابط المباحث إلى رؤوف و سماح بينما شحب وجه شاهيناز بشدة .. وهي تهتف :

- كنت أدافع عن نفسي .. هو حاول قتلي أولاً .. هو مجرد شخص وضيع ومن أرباب السوابق و ليس من المنطق ...

هتف رؤوف في حدة :

- ولما حاول أن يقتلك ؟ .. ما الذي يجمع بينك وبين شخص من أرباب السوابق لترسلي سيارة أبي لتحضره حتى هنا ثم تتشاجران معاً إلى حد ارتكاب جريمة قتل ؟ .. ما السر الذي يجعلك تلوثين يديكِ بالدم من أجل إخفاؤه ؟

هتف رئيس النيابة في اهتمام :

- من الواضح أن لديك معلومات عن الواقعة .. فلما لا نتعرف عليك أولاً يا أستاذ قبل أن نشرع في استجوابك ؟ .. لأننا في حاجة إلى معرفة كل ما تعرفه عن القتيل و المتهمة .

زفر رؤوف في حرارة قبل أن يهتف في توتر :

- أنا رؤوف الصياد و المتهمة هي أمي .. وهذه زوجتي سماح والقتيل هو والدها .. لذا دعني أولاً آخذها بعيداً عن هنا فرؤية الجثة تحطم أعصابها و أعصابها من الأساس هشة ولن تتحمل هذا الموقف .

أمر رئيس النيابة ضابط المباحث بإلقاء القبض على شاهيناز و استكمال التحقيقات في سراي النيابة كما طلب من رؤوف وسماح التوجه إلى النيابة فوراً للإدلاء بأقوالهما هناك لكن سماح لم تكن مستعدة لأن تتحرك من مكانها قبل أن تعرف ما هو مصير ابنها لذا أمسكت بثياب شاهيناز و هي تهتف في انهيار :

- قولي الحقيقة .. أتوسل إليكِ .. أين ابني ؟.. أنتِ تعرفين أين ابني .

حاول رؤوف إبعاد زوجته عن أمه لكن سماح ظلت متشبثة بها حتى هتفت شاهيناز في برود :

- ابنك مات .. خنقه أبوكِ ودفنه منذ استولى عليه من حضنك لأنني دفعت له الثمن المناسب .

ظلت سماح تصرخ في انهيار حتى فقدت الوعي بين ذراعي رؤوف الذي حملها إلى المستشفى حيث حقنها الأطباء بمهدئات كافية لتجعلها تنام إلى وقتٍ طويل .

ترك رؤوف زوجته في المستشفى و ذهب إلى النيابة حيث سبقه والده إلى هناك ؛ كان رشدي يهتف في استنكار :

- هذا جنون حتماً .. شاهي تقتل ؟ .. مستحيل .. و ما الذي بينها و بين هذا الرجل لتقتله ؟ .. هل تفهم شيئاً يا رؤوف ؟

هتف رؤوف في ألم :

- أين ابني يا أبي ؟

عقد رشدي حاجبيه في استنكار قبل أن يهتف :

- ومنذ متى و لك ابن ؟ .. عم تتكلم بالضبط ؟

هتف رؤوف في مرارة :

- هل تحاول أن تخدعني أم أن أمي لم تكتفي باستغفالي ؟ .. لديّ ابن يا أبي .. ابن من سماح .. ابن تدعي أمي أنها قد دفعت للقتيل الثمن المناسب ليقتله و هو لا يزال رضيعاً و أنا لا أستطيع أن أصدق حرفاً واحداً من هذا الهراء .. أمي قتلت جابر لأنه يخفي سراً لا تريدنا أن نعرفه .. و هذا السر هو أين ابني الآن ؟ .. فلما لا تريحني أنت و تقول لي الحقيقة لأنني سأجد ابني ؟ .. سأجده بأي ثمن .

كان رشدي يحدق في وجه رؤوف في ذهول قبل أن يزفر في حرارة ؛ كلام ابنه يبدو له كالهذيان لكنه يعلم أن رؤوف لا يهذي .. هناك جثة تم رفعها من مكتب شاهي و هي تعترف بقتل صاحبها وهذا في حد ذاته دليلاً كافياً على أن رؤوف لا يخرف .. هتف رشدي في سخط :

- كأنك تتحدث عن امرأة لا أعرفها و لكن ليس هذا هو المهم الآن .. كلامك الغريب هذا إذا أثير في محاضر التحقيقات فستضمن أن تتأرجح أمك على حبل المشنقة .. المحامي

سيحاول تكييف القضية على أنها حالة دفاع شرعية لكن شهادتك بأن هناك صلة و دوافع خفية بينها و بين القتيل سينسف محاولاته حتماً .. النيابة ستعتبر الجريمة متعمدة و في هذه الحالة ...

قاطعه رؤوف هاتفاً :

- في هذه الحالة ستتحقق بعض الشعارات التي كانت أمي تتغنى بها عن المساواة و العدالة وهي لم تؤمن بها قط و ليس هذا ما يعنيني الآن .. أمي كبيرة بما يكفي لتتحمل مسئولية تصرفاتها و أنت و ملايينك و بقايا نفوذكما المتهالك سيقف خلفها و يدعمها لكن ابني و أمه فليس لهما غيري .. لن يدافع عنهما غيري .. وأنا لن أتخلَ عنهما من أجل الأم التي تجردت من كل معاني الأمومة و حرمتني من ابني الوحيد .

تحدث رؤوف مع رئيس النيابة عن كل ما يعرفه عن جابر ؛ كان لديه الكثير ليقوله لكنه لم تكن لديه إجابات واضحة عما حدث بالفعل في صباح ذلك اليوم منذ دخل جابر إلى مكتب شاهيناز و حتى أردته قتيلاً .

ادعت شاهيناز في التحقيقات أن جابر كان يبتزها طوال الوقت ليحصل على المال منها حتى لا يفضح حقيقة العلاقة الآثمة التي كانت بين ابنها وابنته و يشوه سمعة العائلة ؛ كما ادعت أنها قد أرسلت له سيارة زوجها في هذا اليوم بالذات لتخبره بأنه لم يعد هناك جدوى من ابتزازه لها بعد أن تزوج رؤوف و سماح و أصبحت الفضيحة علانية ولا مفر منها .

أصرت شاهيناز على أن جابر قد ثار في وجهها عندما رفضت أن تمنحه المزيد من المال و أنه قد تهجم عليها و حاول أخذ المال منها عنوة و فتح خزينتها وأنها أخرجت المسدس لترهبه فحسب و لكن انطلقت رصاصة رغماً عنها .

كان من الواضح أنه ليس رؤوف فحسب من لم يصدق كل ادعاءات شاهيناز و إنما رئيس النيابة أيضاً فقد أمر بحبسها لأربعة أيام على ذمة التحقيق ولم يقبل الإفراج عنها بالضمان المالي .

ذهب رؤوف إلى الملجأ و طلب من المشرفات أن يرَ جميع الأولاد الذين دخلوا إلى الملجأ و هم رضع و يماثل سنهم سن ابنه حالياً لكنه فوجئ بأنه لا أحد منهم تنطبق عليه هذه المواصفات .

عاد رؤوف إلى المستشفى و هو لا يعرف ما الذي سيقوله لزوجته بعد أن أغلقت الأبواب في وجهه ولم تكن أمامه وسيلة للاهتداء إلى ما يريد ..

ربما عليهما الإقرار بأن ما ضاع منهما لا يمكن استعادته لكن يمكن تعويضه فالعمر لا زال أمامهما و عليهما أن يسلما بقدر الله ويرضيان بقضاءه .

الفصل الثالث و العشرون

جلست سماح في الفراش و هي ساهمة ؛ كان رؤوف يدرك جيداً أن تأثير المهدئات التي في دمها لم يزل بعد و إلا لما كانت متماسكة على هذا النحو .. كان رؤوف يهتف في رقة :

- قدر الله وما شاء فعل يا حبيبتي .. أنا تأكدت بنفسي من أن ابننا ليس موجوداً في الملجأ .. أمي لن تفيدنا بأكثر مما قالته فعلاً و والدك قد مات وأخذ سره معه .. ليس أمامنا الآن سوى أن نفوض أمرنا لله و نرضى بما قسمه لنا .. ويكفي يا سماح أننا معاً أخيراً وبعد كل هذا الفراق و لا زال العمر أمامنا و غداً .. غداً قد ينعم الله علينا بولد و اثنين وثلاثة يتربون في حضنك .. و حضني .

لمعت الدموع في عيون سماح وهي تهمس :

- ماذا فعل لهم ابني ليقتلوه ؟ .. هل كل ذنبه أنه ابني ؟ .. أنا لم أكن لأقول أنه ابنك .. لو كنت أستطيع أن أجهر بهذا لما سكت لشهور طويلة وهو يكبر في أحشائي و الناس تسألني وأنا .. أنا لم أقل شيئاً يا رؤوف .. لم أقل .. لماذا لم يتركوه لي ؟ .. كنت أريد أن أراه فحسب ..

هل كثير أن أرَ ابني وأضمه إلى صدري لمرة واحدة فحسب ؟ .. هل كل هذا لأنني فقيرة وضعيفة وليس لي ظهر أو سند ؟ .. أنا لم أختر أن يكون أبي مدمناً و أمي قليلة الحيلة ؟ .. لم أختر أن أكون في حياتك و لا أن أحمل ابنك .. لم أسعَ لحبك .. في كل لحظة كنت أشعر فيها بأنني أحبك كنت أذكر نفسي بالمسافات البعيدة التي بيننا و لم أحلم بأن تكون لي .. حتى الآن .. حتى بعد أن تزوجنا .. لا أصدق أنك فعلاً قد أصبحت لي .. أتظن لو أنني حامل الآن هل سيقبلون بأن يكون لك ابن مني أم سيدفنونه بجوار أخيه ؟

ضمها رؤوف بقوة وتركها تفرغ دموعها في صدره ؛ ظلت سماح في المستشفى لعدة أيام و عندما سمح لها الأطباء بالخروج أخذها رؤوف إلى شقته .. كان يرى التعاسة في عينيها ولم يكن بيده ما يفعله ليخفف عنها .

دخلت سماح إلى الشقة ونظرت في أرجاءها في فتور ؛ فهتف رؤوف :

- يمكننا البقاء هنا بشكل مؤقت حتى نفكر فيما سنفعل في الأيام القادمة .. أفكر في أن أصفي

شركتي هنا و أن أنقل نشاطها إلى دبي مثلاً .. ما رأيك ؟ .. دبي بلد جميلة جداً و مبهرة و ستطيب لنا الإقامة فيها .

همست سماح في شحوب :

- ستطيب لي الإقامة في أي مكان يجمعنا معاً يا رؤوف و ليس به أحد يعرفني ليعايرك بي .. وكلما كان هذا بسرعة كان أفضل .

أحاط رؤوف وجهها بكفيه ؛ وهتف في حسم :

- لا أفكر في السفر لأن وجودك في حياتي يخجلني يا سماح .. على العكس أنا لم أكن حراً في حياتي إلا عندما اتخذت قرار زواجنا بملء إرادتي و لست مستعداً للتخلي عنكِ أو عن حريتي بعد الآن و لن أجعل معاييراً جائرة أو أفكاراً عنجهية هي التي تفرض سيطرتها على حياتي و تشكلها لي .. ليس بعد أن عدتِ لي يا حبيبتي و أنرتِ ظلام حياتي .

رن جرس الباب فهتف رؤوف مبتسماً :

- لابد من أن هذا هو عامل التوصيل قد أحضر لنا الطعام الذي أوصيت عليه .. دعينا نأكل

أولاً ثم نفكر فيما بعد فأنا لا أعرف كيف أفكر و أنا جائع .

ما إن فتح رؤوف الباب حتى وجد هيثم أمامه فأسرع يضمه إلى صدره و هو يهتف في لهفة :

- حبيب قلبي .. كيف عرفت الطريق إلى هنا وحدك ؟

هتف هيثم في رقة :

- وحشتني يا خالي و لم أرك سوى مرة واحدة منذ عدت من أوروبا .. جدي سمح لي بأن آتي لزيارتك و سائقه قام بتوصيلي .. مسموحٌ لي بالبقاء هنا حتى آذان العشاء ثم سيعود السائق لاصطحابي .

دخل هيثم إلى ردهة الشقة مع رؤوف الذي أشار إلى سماح و هو يهتف :

- اشتقت إليك و لي حديث طويل معك و لكن تعرف أولاً على زوجة خالك .. سماح .. هذا هيثم ابن هايدي .. أجمل عضو في عائلة الصياد .

ابتسم هيثم ومد يده إلى سماح ليصافحها لكنها لم تمد يدها إليه ؛ كانت تنظر إليه و هي ساهمة و كأنها في عالم آخر و الدموع تتلألأ في عينيها قبل أن تمد يديها لتجذبه إلى صدرها و تضمه بقوة و دموعها تنهمر .

كان رؤوف ينظر إلى سماح في حيرة قبل أن يضع يده على كتفها وهو يهمس :

- تعالي يا سماح .. لقد عدتِ من المستشفى لتوك و يجب أن ترتاحي .

تركت سماح الولد يبتعد عن صدرها و إن ظلت عيونها معلقة عليه و رؤوف يدفعها برفق لتدخل معه إلى غرفة النوم قبل أن تنظر إلى رؤوف هاتفة :

- هذا ابني يا رؤوف .. ابننا .. صدقني يا رؤوف .. ابننا لم يمت .. هذا هو ابننا .. ألا ترى كم يشبهك ؟ .. ألا تشتم دمك في عروقه ؟ .. هذا ابننا .. ابننا .

زفر رؤوف في حرارة قبل أن يمنحها بضعة أقراص جعلتها تستلقي في الفراش و تستسلم للنوم قبل أن يغادر غرفة النوم .. وجد هيثم

في المطبخ و هو يعد كوباً من الليمون .. هتف هيثم :

- هل هي بخير ؟ .. تتصرف بغرابة و أظن أنها ليست بخير و لكن .. هي لطيفة جداً .. حضنها دافئ .. هل تعرف أنني لا أتذكر متى ضمتني أمي هكذا آخر مرة ؟ .. أغلب الظن أنها لم تضمني هكذا على الإطلاق .

كان رؤوف يتأمل هيثم و هو يفكر في أن هيثم بالفعل يشبهه كثيراً عندما كان في مثل سنه ؛ لكن هذا ليس غريباً فالولد لخاله .. أم أن هناك شيئاً لا يستطيع أن يدركه بعد ؟

هتف رؤوف في توتر :

- سماح لطيفة جداً و هي حنونة و رقيقة و دافئة .. عندما تعرفها جيداً ستحبها .. لمن هذا العصير ؟ .. الطعام في طريقه إلى هنا و سنتناوله أنا و أنت معاً .. سماح تحتاج لبعض الراحة و ستنام قليلاً ..

هتف هيثم مبتسماً :

- خذ لها العصير أولاً فأنا أصنعه لأجلها .. سيهدئ أعصابها و يجعل نومها أفضل .

نظر رؤوف إلى يد هيثم وهي تحمل كوب العصير قبل أن يهتف :

- هل أنت أعسر ؟ .. لا أحد في أسرتنا أعسر .. ربما ورثت هذا عن والدك .

هتف هيثم في ضيق :

- لا للأسف .. و والدي يوبخني طوال الوقت و كأنما هذا ذنبي .. لا أحد في أسرة أبي أعسر و أبي لا يعجبه من الأساس أنني لا أستخدم يدي اليمنى .. مؤخراً .. أصبح حاداً جداً في معاملتي و كأنه لا يطيقني و منذ عدنا إلى القاهرة لم يسأل عني و لا مرة حتى أنه لا يجيب على اتصالي .. لا أدري ما المشكلة التي بينه و بين أمي بالضبط لكن جدي سيرتب لإقامتي معه في الفيلا إذا وصل الأمر بينهما إلى الطلاق .

أصر رؤوف على أن يشرب هيثم العصير لأن سماح كانت قد نامت بالفعل و عندما هم

هيثم بغسل الكوب التقطه رؤوف من يده و هو يهتف بسرعة :

- لا .. دعك منه الآن و تعالى لنجلس في الشرفة .. أرغب في الحديث معك بشدة فقد اكتشفت الآن فحسب أنني لا أعلم عنك الكثير من الأمور .

ثم برقت فكرة في رأس رؤوف فجأة جعلته يهتف :

- سأرتب للسفر مع زوجتي لقضاء بضعة أيام ما بين الأقصر و أسوان .. ما رأيك لو تسافر معنا ؟ .. الرحلة ستكون مفيدة و مسلية و ستبعدك قليلاً عن الجو المشحون الذي بين والديك .. سأتصل على هايدي و أقنعها و لا أظن أنها ستمانع .

ضحك هيثم و هو يهتف :

- المهم هو إقناع زوجتك اللطيفة بأخذي معكما .. حسب علمي أنكما قد تزوجتما مؤخراً و لا أظن أنها سترحب بعزول في شهر العسل .

تنهد رؤوف في حرارة و هو يهتف في صدق :

- أنت لست عزولاً و أنا واثق من أنه لا شيء سيسعد سماح في هذه الرحلة أكثر من وجودك معنا .

الفصل الرابع عشر

جلس رؤوف خلف مكتبه و هو يدخن سيجاراً في شرود ؛ منذ غادر هيثم منزله و هو لا يكف عن التفكير في كلام سماح ؛ يبدو الأمر و كأنها تهذي لأنه لا يستطيع أن يصدق أن أمه قد انتزعت ابنه من حضن أمه لتمنحه إلى أخته لكنه في قرارة نفسه كان يتمنى لو أن هذا ما قد حدث فعلاً .

لا ينكر رؤوف أن شعوره نحو هيثم كان دائماً عميقاً و جارفاً لكنه لم يفكر من قبل قط في أن هيثم قد يكون ابنه .. ربما لأنه حتى بضعة أيام مضت لم يكن يعلم أن له ابناً من الأساس .

هب رؤوف واقفاً عندما دخلت سماح إلى غرفة المكتب و هي تترنح و أسرع يحتويها بين ذراعيه و هو يهتف :

- كيف غادرتِ فراشك ؟ .. المهدئات التي ابتلعتيها كان يجب أن تجعلكِ تنامين حتى الصباح .

همست سماح في ضعف :

- أين هيثم ؟ .. أين ابني ؟

تنهد رؤوف في حرارة قبل أن يحملها و يعيدها إلى الفراش و استلقى بجوارها و هو يهتف :

- اسمعيني يا سماح و حاولي أن تفهميني أرجوكِ .. أنا لا أكذب إحساسك بل على العكس .. أعرف أن قلبك قد يكون أصدق من عقولنا جميعاً لكن المسألة حساسة و يجب أن نتعامل معها بحرص لأنه سواء كان هيثم ابننا أم لا فإننا لن نستطيع أن نتحدث في هذا الموضوع مع أي شخص قبل أن نتأكد بشكلٍ قاطع و لا شك به خاصةً مع هيثم نفسه .. هل هذا واضح ؟ .. بيني و بين أهلي ما صنع الحداد يا سماح و لا أريد أن تزيد المشاكل بيننا خاصةً أن زواج هايدي يمر بمشكلة بالفعل و لا أريد أن أزيد الطين بلة .. دعينا نحكم عقولنا لا عواطفنا يا حبيبتي حرصاً على مصلحة الولد قبل كل شيء .

كانت سماح تدرك أنه محق وتساءلت للحظة لو أن رؤوف تأكد من أن هيثم ابنهما فعلاً

فهل سيستطيع استعادة ابنه ؟ .. الولد لم يعد رضيعاً بل هو مراهق في الثانية عشر من عمره و يمكنه استيعاب الكثير من الأمور و أهمها الفرق بين أن تكون أمه امرأة مثل هايدي الصياد أو أن تكون مجرد فتاة من قاع المجتمع موصومة بالعار و أنجبته من سفاح .

فجأة تمزق قلبها في ألم و ملأه الخوف .. لا تريد أن يمر هيثم بتجربة مريرة ستزعزع ثقته في كل ثوابت حياته و قد تجعله يكره الأم التي أنجبته و اليوم الذي أنجبته فيه و ربما تحطم نفسيته ومستقبله .

فجأة لم تعد سماح ترغب في أن يبحث رؤوف خلف الحقيقة أو أن يتوصل لها .. لا تريد أن تسترد حقها في ابنها إذا كان هذا سيأتي على حساب اسمه و كرامته و مستقبله .. لا تريد أن يتعرض ابنها للجرح أو الإهانة بسببها و لا تريد أن تأتِ لحظة يكره فيها أنها أمه أو أنها قد ظهرت في حياته .

انفجرت سماح باكية و دفنت وجهها في صدر رؤوف الذي ضمها في قوة وحنان وهو يدرك ما تحس به ويفهم ما يجول في خاطرها دون أن ينطق أحدهما ولا بحرفٍ واحد قبل أن يهمس رؤوف :

- رتبت لسفرنا غداً إلى الأقصر .. و هيثم سيذهب معنا .

انتفضت سماح و ابتعدت عن صدر رؤوف وهي تحدق في وجهه في قلق قبل أن تمسح دموعها وهي تهمس :

- كيف .. كيف سيذهب معنا ؟ .. ماذا قلت له ؟

كان رؤوف يتأمل كفها اليسرى التي تمسح الدموع عن وجهها قبل أن يهتف :

- فقط دعوته لقضاء بضعة أيام معنا .. حاولي أن تضبطي أعصابك و لا تبوحي بما تشعرين به أمامه .. الولد ذكي و حساس و هو يستلطفك ولا أريده أن يشعر بالقلق أو التوتر .. حتى نتأكد فحسب .. بعدها يا سماح سيكون لي تصرف لن يعجب أحداً من أهلي لكنني سأفعل الصواب و ما يمليه عليّ واجبي تجاهك .. و تجاه ابني .

كان رؤوف يدرك أن فكرة الرحلة هي فكرة جيدة جداً لأنها ستمنح سماح فرصة كافية لتتقرب من هيثم و توطد علاقتها به ؛ و مع أنه كان يتوقع أن تجعلها الرحلة في منتهى السعادة لكنه لم يكن يتخيل بالفعل أن يراها سعيدة لهذا الحد .

كان رؤوف يقضي أسعد لحظات حياته برفقة زوجته و الولد الذي كان يتمنى في قرارة نفسه أن يكون ابنه بالفعل ؛ كما كان هيثم يعيش أياماً سعيدة ودافئة تختلف كثيراً عما عاش عليه طوال حياته في برد ايرلندا و برودة الحياة مع امرأة مثل هايدي كان اهتمامها الأول هو الحياة الصاخبة التي تحياها مع زوجها .

في مساء الليلة الأخيرة في الأقصر كانت سماح تجلس بجوار هيثم في فراشه وهو يضع فوق فخذيه الحاسوب النقال ليريها الفتاة التي يصادقها في ايرلندا والمحادثات التي تدور بينهما .

ابتسمت سماح وهي تتأمل الفتى في حنان قبل أن تقبل جبينه و تطلب منه أن ينام مبكراً لأنهم سيسافرون في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي .

تركت سماح غرفة هيثم و أغلقت الباب خلفها قبل أن تقترب من زوجها الذي كان جالساً في فراشه في الجناح الذي كان هيثم يقيم في غرفة ملحقة به و تنهدت في حرارة عندما لمحت دمعة في عيون رؤوف الشاردة تكاد أن تختفي خلف دخان سيجارته .

جلست سماح على طرف الفراش و وضعت يدها على صدر رؤوف وهي تهمس :

- ما بك يا حبيبي ؟ .. ما الذي تفكر فيه و يجعلك تعيساً لهذا الحد ؟ .. ألم تسعد بالأيام التي قضيناها هنا ؟ .. إنها أيامٌ لا تنسى حتى أنني أتمنى لو نظل هنا إلى الأبد .

أطفأ رؤوف سيجارته قبل أن يلتفت إلى زوجته و يمسك كفيها هامساً :

- هل تتذكرين تلك الليلة عندما رأيتِ هيثم و قلتِ أنه ابننا ؟ .. ربما تظنين أنني تجاهلت

الموضوع أو استخففت به لكن هذه ليست الحقيقة يا سماح .. أنا اتصلت بمعمل تحاليل معروف في نفس الليلة و حضر مندوبٌ من المعمل وحصل على عينة من دمك و دمي .. أنتِ كنتِ تحت تأثير المهدئات لذا لم تشعري بما حدث .. منحتهم كوباً كان هيثم قد شرب بعض العصير منه ليحصلوا على عينة من لعابه لمضاهاتها بالحمض الجيني لنا و طلبت منهم إرسال النتيجة لي بالبريد الألكتروني فور التأكد منها .. و قد وصلتني الليلة و ليس بها أي شك .

لاذ رؤوف بالصمت و هو يتأمل وجه سماح الشاحب والترقب في عيونها قبل أن يردف ببطء :

- هيثم ابننا بالفعل .

كانت سماح تتنفس بصعوبة و بدا و كأنها ستفقد الوعي قبل أن تنهمر الدموع على وجهها وهي تهمس :

- كنت أعرف هذا .. كنت واثقة .

هتف رؤوف في أسى :

- أما أنا فلا .. لم أكن أريد أن أصدق أن أمي من الممكن أن تفعل شيئاً كهذا بي .. ثم كيف تصرفت بتلك الحماقة ؟ .. كيف تخيلت أنها من الممكن أن تحتفظ بسرٍ كهذا للأبد ؟ .. ألم تفكر في المخاطر التي عرضتنا لها ؟ .. ماذا لو أنني خضعت لإلحاحها و تزوجت فعلاً ؟ .. ألم يكن من الممكن أن يرغب هيثم في الزواج من ابنتي و هو يتخيل أنها بنت خاله ؟ .. و هايدي ؟ .. كيف تفعل هذا بي ؟ .. كيف تتآمر عليّ معها وتشترك في خطف ابني ؟ .. هذا كابوس يا سماح .. كابوس و لا أعرف كيف أتعامل معه بدون أن أفقد عقلي أو أجرح ابني .. كيف سيتقبل هيثم الحقيقة ؟ .. كيف سيتعامل مع الأمر ؟ .. نحن سننسف له عالمه كله ؛ فكيف سيتفهم أن تكون حياته كلها مجرد كذبة غير مسئولة من أم لم ترحم ابنها و غدرت به ؟

الفصل الخامس والعشرون

أوقف رؤوف السيارة في حديقة الفيلا قبل أن يلتفت إلى سماح الجالسة بجواره و هيثم الجالس على الأريكة الخلفية و يطلب منهما مغادرة السيارة .. لم يكن يرغب في الدخول إلى الفيلا مرة أخرى لكنه كان يدرك أن هذه بالفعل قد تكون المرة الأخيرة ..

هناك أمور في هذا العالم عليه أن يحسمها قبل أن يبتعد بزوجته و ابنه و يبدأ في بناء حياة جديدة تضم ثلاثتهم فحسب ولا مكان فيها لكل الناس الذين تلاعبوا بهم و أفسدوا عليهم حياتهم ولم يجدوا عندهم سوى التعالي و الجحود .

لم تكن سماح ترغب في المجئ إلى الفيلا بدورها ؛ لكنها كانت تدرك أن رؤوف أمامه مواجهة حتمية وأخيرة مع أخته و والده وأرادت أن تكون قريبة منه حتى لو لم تكن جزءاً من هذه المواجهة .

نظر هيثم إلى رؤوف في استغراب عندما طلب منه ترك حقيبته في السيارة كما هي و البقاء مع سماح في الاستراحة لكنه لم يعترض و ذهب معها .. و عندما أغلقت سماح باب الاستراحة خلفهما كانت تبدو مضطربة ومتوترة حتى أن هيثم أدرك هذا و هتف :

- ما بكِ يا عمتي ؟ .. هل هناك مشكلة ؟

لمعت الدموع في عيون سماح قبل أن تقترب منه وتضع يدها على كتفيه وهي تهمس :

- لا .. ليست مشكلة و لكنها مسألة غريبة و لا أدري ما إذا كنت ستفهمها أم لا .. قصة .. قصة كان رؤوف يرغب في أن يشرحها لك بنفسه و لكن .. أظن أن هذا دوري .. رؤوف عليه حمل ثقيل و المواجهة مع هايدي لن تكون سهلة و لا أريده أن يتحمل فوق طاقته .. هيثم .. أنت تدرك كم أحبك ؛ أليس كذلك ؟ .. تماماً كما لو كنت ابني .. لأنك في الحقيقة ابني .. ورؤوف ليس خالك كما تظن .. رؤوف أبوك .

ظل هيثم ينظر إلى سماح باستغراب قبل أن يبتعد عنها و يغادر الاستراحة و يجري نحو

الفيلا التي كان رؤوف قد سبقه إليها منذ بضع دقائق .

كان رشدي جالساً مع هايدي في غرفة المكتب عندما دخل إليهما رؤوف فنهض رشدي من خلف مكتبه وهو يهتف :

- جئت في الموقت المناسب يا رؤوف .. تعالى لترى المصيبة التي ورطتنا أختك بها .. أنا لا أفهم ما الذي يجري في هذا البيت بالضبط .. لا ينقص سوى أن يحمل كلٌ منكم معولاً و يحطمه فوق رؤوسنا جميعاً لبنة لبنة .. ألا يكفي ما فعلته المظاهرات بنا ؟ .. و المصيبة التي ورطتنا شاهي بها ؟ .. مركزنا المالي كله مهتز و الهانم أختك اختارت هذا الوقت بالذات لتختلف مع زوجها .. أنا لا يهمني طلاقها من عدمه .. المصيبة في أن حماها السابق يرغب في فض شراكته معنا .. هل تدركان حجم الهزة التي ستتعرض لها امبراطوريتنا لو انسحب الآن ؟ .. كارثة .. أنا ....

تجاهل رؤوف كلام أبيه ونظر إلى هايدي الشاحب وجهها وهتف :

- و السبب يا هايدي ؟ .. ما سبب طلاقكما الآن ؟

هتفت هايدي في توتر :

- هذا ليس من شأنك .. ليس من شأنكم جميعاً .. هذه حياتي و أنا حرة بها .

هتف رشدي في استنكار :

- لا يا هانم .. هذا شأننا جميعاً .. مع أنني أستطيع أن أتفهم السبب .. حماكِ العزيز يريد أن يغسل يده منا الآن بعد الفضيحة التي ورطتنا أمك بها .. و الزيجة الحقيرة التي ورطنا فيها أخوكِ المحترم .. لكن أنا رشدي الصياد .. وسأظل رشدي الصياد .. و لا أحد يستطيع زعزعة مركزي و ....

قاطعه رؤوف هاتفاً :

- بدلاً من العنجهية الفارغة كان عليك أن تتصل بزوج ابنتك وتتكلم معه لتفهم ما الذي يحدث بالضبط .. على الأقل لتعرف أن ورقة طلاقها غيابياً ليست آخر المطاف و إنما هي أوله .. مجدي رفع قضية لرد نسب هيثم .. هل

تعرف السبب أم أن ابنتك تستطيع أن تشرحه لك ؟

بهت وجه رشدي و هو يتمتم :

- رد نسب !! .. ما معنى رد نسب ؟ .. الكلب .. هل يتهم ابنتي بالزنا ؟

شحب وجه هايدي بشدة بينما هتف رؤوف في ازدراء :

- بل يتهمها بالخداع و التدليس .. الهانم بنت الحسب و النسب وهمت زوجها بحملٍ لم يحدث من الأساس و عاشت معه لسنواتٍ طويلة وهي تخدعه بابن ليس منه أصلاً و لا هي أمه .. أليست هذه هي الحقيقة يا هايدي هانم ؟ .. و قبل أن تنكري اعلمي أنني قد اتصلت على مجدي وتكلمت معه وهو شرح لي كل شيء .. كيف استطعتِ أن تفعلي هذا بالرجل الذي أحببتيه و منحك اسمه وحياته كلها ؟ .. من أين واتتكِ الجرأة ؟

هبت هايدي واقفة ؛ و هي تهتف في حدة :

- كنت مضطرة .. هل تظن أن مجدي كان سيعيش معي لو علم بأنني عقيم ؟ .. أصر

على أن نذهب للأطباء و نحن لم يمر على زواجنا سوى شهرين لأنه كان متلهفاً على الولد الذي يحمل اسمه و يرث ملايين أبيه .. كنت محطمة و أنا أعرف أن حياتي معه ستنهار وتنتهي بمجرد أن أصارحه بالحقيقة و أنا لم أكن مستعدة لهذا .. هل تفهم ؟ .. لم أكن مستعدة لخسارته مهما كان الثمن .

هتف رشدي في ذهول :

- بهذه البساطة ؟ .. وكيف استطعت خداعه وخداعنا لكل هذا الوقت ؟ .. و الولد ؟ .. هيثم .. أليس حفيدي ؟ .. مستحيل .. كيف عثرتِ عليه ؟ .. هل اشتريتيه من السوبر ماركت ؟

هتفت هايدي في توتر :

- لا .. أمي هي التي فعلت .. عندما صارحتها بالحقيقة كنت منهارة لكنها وقفت بجانبي و ساندتني .. هي صاحبة الفكرة من الأساس .. عندما طلبت مني أن أدعي أنني حامل كانت واثقة من أنها تستطيع أن تحضر لي وليداً في الوقت المناسب و هذا ما فعلته .. أنا لم أسألها كيف أو من أين ؟ .. كان كل ما

يهمني هو إنقاذ زواجي و هذا ما فعلته ؛ و لولا أن مجدي ظل يلح في أن ننجب مرة أخرى حتى أنه أجبرني على الذهاب إلى الأطباء لظل الأمر سراً إلى الأبد .

هتف رشدي في ثورة :

- شاهي فعلت هذا كله من خلف ظهري ؟ .. اللعنة !! .. و ماذا سنفعل في هذه المصيبة الآن ؟ .. كيف سنتصرف في هذه الورطة ؟

هتف رؤوف في هدوء :

- أنا أعرف كيف سأتصرف .. سأذهب إلى المحكمة مع مجدي و سأطلب رد نسب هيثم منه و إثباته إلى والديه الحقيقيين .. أنا و سماح .. هيثم لا يزال حفيدك يا معالي الوزير لأنه ابني .. على الأقل الآن بتنا نعلم السر الذي كان بين جابر و أمي وانتهى بقتله .. و قبل أن أخرج من هذا البيت الملعون و لا أعود إليه أبداً أريدك أن تعرف أنني لست الوحيد في هذا البيت من كان أعمى .. فأنت أيضاً يا أبي للأسف كنت أعمى .

فتح رؤوف باب غرفة المكتب ليغادره فوجد هيثم أمامه ؛ كان من الواضح أن الصبي قد سمع كل ما دار في هذه الغرفة فقد كانت الدموع تغرق وجهه .

فتح رؤوف ذراعيه و ضم ابنه إلى صدره قبل أن يخرج معه إلى الحديقة حيث كانت سماح واقفة بجوار السيارة في انتظارهما .. مسح رؤوف الدموع عن وجهها قبل أن يضمها مع هيثم إلى صدره و هو يتنهد في ارتياح .